

ايليا حليم حنا

وقفة مع النفس

بقلم ايليا حليم حنا

* * *

كان عام ١٩٧٧ يلفظ آخر انفاسه ، وكان الكل في المنزل حولي مبتهجا ينتظر في احساس عميق غامر مبهج الدقائق القليلة الباقية على مجيء العام الوليد ، كانوا يستقبلون مرحلة جديدة من الحياة بآمال جديدة ورؤية جديدة ، كانت اعماقهم تنبض بحرارة الجديد وروعته وجماله ، كانت ارواحهم تشدو والحياة تضحك فيهم لانهم كانوا يرون طريقا مضيئا باهرا امام عيونهم ، ومجرى آخر تسير فيه حياتهم اشد وفرة وغنى وغزارة ، وآفاقا تضيف الى حياتهم ابعادا لم تكن فيهم . كانوا في لحظة الانطلاق الجديد النابض ، والمشاعر المشحونة بالامل والتفاؤل ، ينطلقون بأفكارهم الى حياة نضرة جديدة .

في غمرة هذه البهجة ، وفي وسط هذه الغبطة ، وفي هذه اللحظات الحلوة لحظات العبور بين الواقع والحلم توقفت على درب حياتي الطويل والقيت بناظري الى الوراء لارى كيف مضت رحلتي الى الآن ، ووجدتني اواجه ذاتي مواجهة داخلية بالغة الصدق ... عدت الى مثل هذا اليوم من العام القديم وانا أسأل نفسي : كم من اعوام ودعناها ونحن نتطلع الى حياة جديدة في شوق مسرف الى الكمال ؟ ! ماذا حققنا من كـل تطلعاتنا ونحن نستقبل الاعوام الجديدة ؟ هل حققنا معظم اهدافنا او حتى بعضها ؟ هل نفذنا كل ما وضعناه من برامج لعام جديد حافل ؟ ما مـدى التغيير في نفوسنا وعاداتنا وسلوكنا واهتماماتنا وجهودنا وتفكيرنا وتصوراتنا وقيمنا وتعاملنا مع الآخرين ، وكل جوانب حياتنا المكونة للشخصية الناضجة ؟ هل اصلحنا اخطاءنا التي نعرف انها تعوق تطورنا الى ما هو افضل ؟ هل سيطرنا على سلوكنا الفكري والوجداني .. هل طورنا اسلوب حياتنا ؟ هل تخلصنا من ضعفاتنا ومعوقاتنا واقتربنا شيئا فشيئا نحو الكمال ؟ هل انجزنا فعلا كل ما فكرنا في انجازه كل عام وبنينا حياتنا بناء صحيحا ام اننا ما زلنا نرزح تحت عـبء الاحساس بالقصور والعجز ، وبقيت حياتنا بلا معنى ، كلها ايام رتيبة تولد صباحا وتجهض مساء ؟ !

تصورت ما كان يمكن ان تعطيه الحياة لنا من نضج وجمال في سنواتنا التي مرت لو اننا فعلا افدنا من تجاربنا وكان لنا من الارادة والايمان ما يمكننا من تحقيق برامجنا .. كلنا نعرف كيف ندع السنين تمر ونحن في تناقض بين الواقع والحلم الجميل بحياة اجمل ، ولا نجاح لحلم الا بتحقيقه . ... مأساتنا اننا نعرف ما يجب ان نعمله ولا نعمل ونترك نزعاتنا العاطفية الضحلة الهوجاء تتحكم في مصيرنا وتقف بنا دون مجابهة الحياة في مستوى النضج والكمال ، وقد صور الشاعر الصيني (فنج شيه) هذه الحياة والنزاع فيها بين الانسان واشواقه بكلمات حية جاء فيها :

ما من عصفور ذهبي يغرد في اذني
بل هناك غربان المساء تنعق نادبة من بعيد
كل شيء مختلط مشوش ، بعيد المنال
اين طريقي في الحياة
انا العاجز الضال ؟
انني احب واحترم
الانسان
الذي يستطيع ان يعيش في صمت
بطلا بلا اسم حتى نهاية الزمان ،
اما انا، فكل ما استطيع ان افعل هو ان اموت في صمت
بلا اسم ولكن لست بطلا .

...

واسفا ، عيناي كليلتان
لا تبصران اي بصيص من ضوء العاصفة
اني احسدهم
اولئك الفتيان والفتيات الذين ماتوا من اجل الحب
تاركين ذكريات حلوة
في قلوب الرجال
غير اني اقصر عن بلوغ كل هذا ،
كل ما استطيع هو ان احملق ،
احملق بنظرات فارغة الى عابري السبيل في المدينة
كل يحمل على كتفه حمل الفراغ الثقيل

كل يحمل على كتفه حمل الفراغ الثقيل !
بلا شيء وراءه غير الكآبة اللانهائية(١) .

هل نظل حتى نهاية الحياة نضج تحت الغبار واللهب في بيداء قاحلة يدفعنا الى معايشتها ضعف الارادة ، واخفاق العقل ، وسيطرة المعوقات ، وتضيع حياتنا في نزاع مرير بين اشواق النفس الفضلى وواقعها ، بين الحلم والحقيقة ؟ ان الزمن يقهرنا ونحن كل عام نرجو ونأمل ولا نحقق رجاء او املا ، نبكي الجمال والعظمة الضائعين ... انه لشيء مؤسف مؤلم ان يمضي الانسان ايامه وهو يقول سأعمل ولا يعمل شيئا ويسلك كل عام نفس الطريق المسدود يمتلىء حلقه بالمرارة ونفسه بالعجز ويصبح هو مشكلة نفسه .

يقول (توماس بين) في ذلك : « ما اعجز الانسان ان لم يستطع ان يرفع من قيمة نفسه ، وما اتفه العقل اذا شل وظيفته بالتمسك بموروثات تنقصها الحقائق الساطعة » .

ويقول (جون جاردنر) في كتابه (تجديد الذات) : « الشيء الذي يعوق التطوير الذاتي هو السجن الذي يصنعه الانسان بيده ، ويحبس فيه نفسه ، او بمعنى آخر عجزه عن تحرير ذاته من اغلالها » .

ويقول (هنري دافيد ثورو) : « فلنخترق ما في الآراء والتقاليد والاوهام والاضواء والمظاهر الكاذبة من وحل سميك او رقيق ... » .

ويقول « ولست اعرف شيئا اكثر تشجيعا على هذا من قدرة الانسان التي لا نزاع فيها على ان يرقى بحياته بما يبذل من الجهد عن علم وقصد » .

ويثور (جاك لندن) على نفسه وعلى ما ارتكبه من دنايا — وكان قرصانا أفاقا سجن عدة مرات — ويلومها قائلا : (أهذه هي الحياة ان اعيش كدابة بل كخنزير يتمرغ في حمأته ؟ !) ويبدأ على الفور في بناء ذاته الفضلى .. كان الطريق شاقا ولكنه بالسيطرة الكاملة على نفسه امكنه ان يتخلص من ضعفاتها ، واصبح من اعظم كتاب العالم... وعندما مات كتبت عنه صحف العالم كله اكثر مما كتبه عن (فرانسوا جوزيف) امبراطور النمسا الذي توفي قبله بيوم واحد ، وبكته امته وحزنت حزنا عميقا ، وقالت عنه صحافة بلاده : (كفوا عن الضحك فقد فقدنا جاك لندن) .

ليس من الحكمة ان نمضي كل حياتنا ننسج كل عام ، او ربما كل يوم ، خيوط حياة جديدة افضل من التي نعيشها ثم تجرفنا عاداتنا واساليبنا الفكرية والعاطفية المعوقة عن البناء الطيب المثمر ، وتمضي حياتنا فارغة جافة مملة نسج فيها كما نسج في بحر جف ماؤه ووجدنا انفسنا نعوم فوق ما فيه من حصى واشواك تحت شمس محرقة تلهب رؤوسنا واجسادنا .

يقول (ماكس مولر) : « انها لخطيئة كبرى الا يكون المرء سعيدا » .

لا سعادة في الحياة بدون هدف نبيل نبذل كل الجهد لكي نصل اليه ، لا بد لنا من قمة شامخة متفاوتة الارتفاع نتسلق اليها بعزم قوي ونشاط وتفاؤل ، فنسعد كلما ارتقينا درجة تقربنا من القمة ونجد في هذا راحة لنفوسنا .

(انك بدون رسم صورة افضل لحياتك وبدون تطلعك الى ذات مثالية تتعشقها وتجعلها هدفك الذي تعيش من اجله ، بدون هذا التصميم الرائع ، تعيش فاترا قلقا مضطربا ...) (٢) اجعل لحياتك غاية وحدد هدفك واقبض على زمام نفسك وسر في طريق النجاح الطويل ، سر حتى النهاية ، لا تنظر الى الخلف او تحسب المسافة الباقية ، سر وتقدم ، حطم العقبات ولا تقف ، تسلق الجبال بين الاعاصير والانواء ، ولا تطلب الامان والسلامة فيما اعتدت عليه من عادات وافكار زائفة .. سر ولا تتردد .. تقدم نحو انسانيتك العليا وقل مع (غاندي) : « حياتي هي رسالتي » .

ليس الطريق الى الكمال سهلا ، وجمال الشخصية ونضجها يتطلب منا اكثر من الرغبة والتمني ، يتطلب اصرارا ، وارادة قوية ، وتحكما في النفس ، لرفض الامتثال لاخطاء النفس وضعفاتها .

الشخصية الانسانية المتكاملة جبل عال شامخ نصل الى قمته الرائعة بالرغبة الصادقة والحب الحقيقي للحياة الافضل والارقى ، ولا بد ان نتكبد في هذا الصعود الصعب السعيد ما يتكبده ويتحمله اصحاب هواية تسلق الجبال رغم ما تتعرض له حياتهم من مخاطر قد تفضي بهم الى الموت ، وشتان بين الهدفين ... بتحدي الظروف المعوقة يمكننا ان نحصل من الحياة على اجمل ما فيها ، واجمل ما فيها ليس هو النجاح المادي فقط ... لا بد من التحديات العنيفة المتصلة لكي يتسنى لنا تحرير انفسنا ، وتحرير النفس ليس امرا هينا ، قال عنه (غاندي) : « ان قهر الشهوات الكامنة في النفس لهو اشق بكثير من قهر العالم اجمع بحد السيف » .

وأرانا الشاعر الفيلسوف (اندريه ريفوار) الطريق اليه ، في كلماته القوية النابضة الموحية التالية :

انطلق في طريق الشوك شامخ الراس، عالي الجبهة ، مضموم القبضة ولا تتقهقر ...
احترق كفاحا ونضالا وعش !
اذا خاب املك فاجعل من الخيبة حافزا
واذا وهن عزمك فاصنع من التعب سوطا
واذا انتابك اليأس فاخلق من اليأس نارا
تضرم فيك شعلة الجنون وتلهب مثلك الاعلى .
احترق ضعفا وقوة وتعذب
احترق مرضا وصحة وتغلب
احترق تجربة وحكمة وتعذب

---

(١) ترجمة الاستاذ عادل محمد علي : مجلة الشعر ، يوليو ١٩٦٤ .
(٢) من كتابي : (كيف نجحوا) ١٩٥٩ .

احترق ثقافة ومعرفة وتغلب
احترق ارادة وتحملا وعش
احترق تجلدا وتصلبا وتعذب
احترق سعيا وراء الكمال المطلق وعش .
هذه هي الحياة .

التحدي يثري حياتنا ويفتح لنا آفاقا جديدة عديدة يجب استكشافها والتغلغل فيها . لا يجدد الحياة ويرقى بها غير التحدي ... النفس الانسانية في صراع دائم مع الظروف وهذا يجب ان ينتهي الى الخير والكمال وبعث الانسان المتواصل لنفسه ... بالتحدي نجابه الحياة في مستوى النمو والنضج والسمو والتطور ... التحدي هو الارادة التي نستكشف بها كل يوم شيئا جديدا يجدد حياتنا ويحفظ لها نضرتها ويجعل لها طعما ومذاقا . ما قيمة حياة الدعة الفارغة المملة ؟ ! ان صاحبها موجود ولكنه لا يعيش ... ان مصدر الشقاء هو ضحالة عقولنا وفساد وجداننا ، لاننا نواجه الحياة كما يواجهها طفل بخلفية غريزية ، وافكار محدودة ضيقة ، ورؤية غير واضحة ، وفهم قاصر ، فنشيخ وعقولنا فارغة ووجداننا بدائي ... ماذا تعطينا الحياة ونحن نواجهها هذه المواجهة الناقصة ؟ ليس في الحياة الضحلة الجامدة اية متعة لصاحبها ، انه يشقى بها فلا شيء يملأ فراغ نفوسنا الا الظلام ، ولا شيء ينمو فيه الا التبرم والملل والقلق واليأس والضياع . النفس لا تسعد الا عندما تصل الى العمق الانساني بالنضج العقلي والوجداني الذي يستجيب لكل باعث قوي راق يحرك حياتنا من السطح الخامد الى الاعماق الثائرة ، ويؤدي بنا الى الفهم العميق للحياة ويحدث في انفسنا تغيرات تقدمية تجعلنا نرضى عن حياتنا ، وفي هذا الرضا سعادة لا يعرفها الذين يقفون عند السفح يتطلعون الى القمة ولا يحاولون التسلق اليها ... وتمضي كل ايامهم فارغة مخلفة لهم التعاسة والاوجاع النفسية ... ان انشغالنا ببناء الحياة الناضجة الطيبة هو في حد ذاته مصدر سعادة لنا .

ومغالبة النفس وتطهيرها مما ركب فيها من نقائص موروثة او مكتسبة امر صعب ، والارادة وحدها قد لا تصل بنا الى نهاية الطريق ... اننا ونحن في طريقنا الى انضاج نفوسنا وتطويرها في حاجة الى رفيق قوي يعيننا على اعلاء ميولنا الغريزية ، ويمكننا من التغلب على انفسنا وعلى ما فيها من عواطف بدائية ... وليس غير الايمان القوي العميق البعيد عن التعصب ما يكبح جماح النفس ويقيها الشطط ... انه قوة دفع جبارة للارادة الطيبة يعطينا طاقة جبارة للصمود والتحدي ... انه وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالانسان ليصير سيد نفسه وهو الحارس القوي للقيم الطيبة يسكب في قلب صاحبه عصارة اسمى العواطف الانسانية ، يغير الاعماق ويحرر النفس من كل قيد ويجعلها اقوى واصلب مما هو خارج عنها ، انه السبيل الى تيسير العسير يكتسح الالم ويتغلب على الصعاب ... انه النار المقدسة التي تحرق كل ادران النفس وتبعث في شرايين الانسانية حرارة القيم العليا ... وهو مصدر كبير للسعادة لانه يحقق لنا الامن والطمأنينة حتى في اشد حالات الضيق والاضطراب ... لذا فهو الزم الامور لنا في رحلة الحياة ان اردنا الا تقهرنا غرائزنا وميولنا البدائية ، وعاداتنا المعوقة ، وافكارنا الجامدة ، ونحن في الطريق الى تطوير ذاتنا .. انه يحقق ما لا تستطيع ان تحققه الارادة وحدها .. ولذا فانه لا غنى لنا عنه اذا اردنا السير في طريق الارتقاء والسمو دون نكوص ..

يقول (هنري لنك) : (الواقع ان كل عواطفنا عمياء الا بقدر ما نضيء لها الطريق بتجاربنا وايماننا ، وبقدر ما ترشدها القيم العليا التي تختلف عنها) . الايمان يثبت القيم وينصرها ، لا شيء يزلزل المؤمن او يزحزحه عن هدفه .. الايمان هو الباب الذي نمر منه الى الجوهر الانساني الكامل .

يقول (توفيق الحكيم) : « القرار الذي يتخذه الانسان في شأن مصيره قلما تنقصه الايام ، اذا كان صادرا حقا عن ارادة وايمان » . ويقول : (الحياة عندي في جوهرها هي تحقيق الذات) .

ترى هل حققت ذاتك وانجزت برامجك وتطلعاتك في العام الماضي والاعوام التي سبقته ؟ هل اقتربت بك خطواتك من الاهداف ؟ ان لم يكن قد تحقق لك هذا حتى الآن فلا تقف حيث انت ...

ضياع ان تعيش هذا الخريف الموحش الى الابد ... الانسان الحي لا تنتهي مهمته في تطوير امكانياته في حياة نامية ناضجة لا يتوقف نموها ونضوجها ... الاستمرار في الجمود موت .. ولا بد من عملية مستمرة من التجدد كي نلغي اثر عملية الاضمحلال والموت المرحلي في حياتنا .

يقول (ملتون) : « اذا تراجعت مياه النبع الحار الى الوراء فلا يلبث ان يصير مستنقعا قذرا » . عيب الناس ان يقفوا امام الحياة وتحدياتها كأنهم موتى ، وهم يعرفون ان السعي الى ما هو افضل يتطلب اكثر من الرغبة والتمني ... ينبغي الا يظل المرء هائما على وجهه منقبا باحثا عن نفسه بين مزالق الوجود ومآزق العدم . الحياة قصيرة وان طالت ، ويجب ان نعيشها بقوة وعمق حتى نراها دائما نضرة متجددة كالربيع ، جميلة في عيوننا وقلوبنا وافرازات عقولنا ... انزع من قلبك عوامل التخاذل والفشل والذبول وكن امينا مع نفسك مخلصا لها ، والاخلاص لها هو ان تسير بها الى الامتلاء والنضج والجمال والكمال لتكون ربيعا دائما ... ولا تتحقق لها هذه السعادة الا بمزيد من الممارسة الخلاقة في مسيرتنا نحو الهدف العظيم استمرارا واتصالا وارتباطا وعهدا حتى يكون احتفالنا بالاعوام الجديدة احتفالا بانتصاراتنا على انفسنا وبحياة جديدة اكثر نضجا واشراقا .

القاهرة — ايليا حليم حنا

نجوم المتاهة

*

ليلى السايح

*

الكويـــت



في نهاية كل عام
تبدو شجرة الايام عارية ووحيدة
في انتظار فجر آخر وسماء اخرى .
كذلك ستبدو بعد ايام قليلة
من رحيل الانتظار والقلق :

طويلة بعريها
كطول هذا الشجن
الممتد كجرح عميق
وحيدة بصمتها كصمت النجمة الوحيدة
في متاهة لا تنتهي !

ليس الخيال وحده
ما يصلح للحديث عن الزمن المتشابه
الزمن الدائري
على ساعة بلا مؤشرات
فكذلك تصلح المتاهة
وكذلك تصلح النجوم القليلة البعيدة
لرصد ايام ، خارج الايام
والامساك بهذه القاعدة :
السنوات المجهولة وراء اسوارها .

سنقف الآن ممدودين
بهذا الشبق الجنوني
لعام لن يجيء
وبهذه الرغبة الممتلئة ، سنرسم وطنا ..
سنرسم وطنا
بشواطىء ومدن وأرياف ، على ورق
ونسافــر ..
نسافر في كل عام ، مشدودين لاحلامنا !

انهم في اقصى الارض
يبتسمون في فرح
لأن بجوارهم تمر الشمس ،
وتمتلىء المتاهة بالنجوم ..
وتنبض الايام
كقطيع من الاسماك في شبكة حقيقية !

ماذا نقول لهذه الشجرة العارية والوحيدة ؟
ماذا نقول للشجرة
الواقفة ابدا تحت غيوم بيضاء
وبضعة نجوم ..
على ابواب المتاهة ؟

بين مهيار الديلمي وعلي الفلال

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

الاستاذ بكلية اللغة العربية — جامعة الازهر

* * *

قدمت دار الكتب المصرية ديوان مهيار الديلمي في اربعة اجزاء منذ نصف قرن ، فأسدت بذلك يدا بيضاء لدارس الادب العربي ، وكان المظنون ان تعقب ظهور الديوان دراسات مستفيضة عن شاعر كبير لم يلق ما يستحق من التحليل والتشريح ، ولكن الذي شغل الباحثين هو نقد الاخراج والتحقيق لفترة اعقبت ظهوره ، وهذا واجب نهض به اصحابه مشكورين ، ومضت الايام دون ان ينهض احد لدراسة الشاعر نفسه الا ما كان من مقال بمجلة العصور للاستاذ اسماعيل مظهر ومقال بمجلة الرسالة للاستاذ عبد الرحمن شكري رحمهما الله .

ومقال الاستاذ مظهر مقال عابر لا يمس الاصول الفنية للشاعر ، لان كاتبه على فضله العلمي غير متخصص في موضوعه وقد قال ان ملامح العنصر الفارسي ظاهرة في شعر مهيار ، متعللا بطول القصائد ، وهي ملاحظة غير صائبة ، لان الديوان عربي المنزع ، في شكله الادبي فكرة وصورة وتعبيرا ، اما مقال الاستاذ عبد الرحمن شكري فقد اكد بعده عن التأثير الفارسي ، وعلل ذلك باحتذاء مهيار للشريف وولوعه بالادب العربي وحده . والمقال على ايجازه النسبي رائع صائب ، ومكانه في المجلد السابع من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ ، فلعل عاشقي مهيار يرجعون اليه متأملين ، وقد راى مجمع اللغة العربية بمصر احتياج المكتبة العربية الى دراسة متأنية عن مهيار ، فعقد مسابقة لهذا الغرض وتقدم لها الاستاذ الشاعر البحاثة (علي الفلال) فأحرز الجائزة الاولى ، وتفضل بطبع كتابه فقراه العارفون ، ثم ظهر في لبنان كتاب عن مهيار جعل دراسة الفلال مرجعه الاول ، هكذا فهمت من موازنة الكتابين .

كما تقدم بعض طلاب الدكتوراه برسالة عن مهيار كانت سطوا فادحا على كتاب الاستاذ الفلال ، وقد كشفها منذ عامين باحدى الصحف في المجلات السعودية ، وكان الاستاذ علي الفلال على خلق عظيم حين اكتفى بمقالي دون ان يطالب بحق ما ، وهي مناسبة تسمح لنا ان نقف عند بحثه متمهلين ، فقد يكون في تحليله الادبي ، ما يدل على مكانه الاصيل والاستاذ علي الفلال كبير شعراء المنصورة واستاذ ادبائها الباحثين ، وهو من رجال التربية الذين انشئوا المدارس الخاصة في وقت كان الاقدام على ادارتها الذاتية بطولة نادرة ، فصدر عن عزة عالية وشمم ابي ، وكان له مع موظفيه همة نادرة تذكر في سجل الاريحية العربية مروءة وترفعا وبسطة كف ، وماذا تقول في رجل يحرص على عشرة من العمال دون عمل ، اذ هم فوق ما تتطلب المدرسة ، لانهم فقراء لا يجدون العمل عند سواه ، هذا الى شاعرية ممتازة تضعه جوار الكبار من شعراء المنصورة امثال علي محمود طه وصالح جودت والهمشري ومحمد عبد الغني حسن ، وقد شغلته اعباؤه التعليمية عن النزوح الى القاهرة لتسلط الاضواء عليه كما سلطت على هؤلاء الكرام على ان وجوده بالمنصورة الدائم ، كان من فضل الله عليها ، فهو نجم محافلها الادبية الذي يعيد اليها هزة المنابر الشعرية ، فيذكر الناس بالجارم وحافظ وبشارة الخوري والملاط ، وقد قدر لي ان اكون مدرسا في مدرسته حينا من الدهر سعدت فيه بأستاذيته ، وحظيت بتوجيهه .

ومن جميل المصادفات المثمرة اني اقتديت به في حب المسابقات المجمعية ، وكان من الحسن ان اشترك معه منذ سنوات في مسابقة المسرحية الادبية فكنت الثاني لانه الاول ، وهي ثانوية افتخر بها واعتز ، اذ سبق بالاولى اديب اصيل .

وتعريفا بدراسة المؤلف المهيار انقل ما تحدث بـــه الاستاذ عبد الوهاب خلاف عضو المجمع اللغوي في مقدمة الكتاب حيث يقول :

« في سنة ١٩٣٠ طبعت دار الكتب المصرية ديوان مهيار الديلمي في اربعة اجزاء ، ضمت قرابة خمسمائة قصيدة تشتمل على نيف وعشرين الف بيت ، وقد قرانا الكثير من هذا الديوان وفهمناه ، ولكن كثيرا من شعر مهيار لم يفهم للدارسين على جليته ، وهو يخاطب اشخاصا ويثير مشاكل لو احطنا بها خبرا لكان فهمنا لشعره ادق واسلم ، واجتلاؤنا لمراميه اوضح وابين ، ولهذا اعتقد ان هـــذا الباحث — يريد الاستاذ الفلال — الذي قدم الينا بحثه الادبي في مهيار وشعره وفق الى حد كبير اذ عني عناية كبيرة بدراسة عصر مهيار ، وقد عاش في بغداد في اوائل القرن الخامس واواخر القرن الرابع الهجري ، فعكف ذلك الباحث على دراسة عصر ملوك بني بويه من مبدئه الى منتهاه ، ورجع بالعوامل التي احاطت بمهيار ، واثرت شعره الى خمسة جلاها واستشهد لكل منها بشواهد من شعر مهيار ، فجلا الشاعر احسن الجلاء ثم زاد بأن عقد موازنة بين مهيار والشريف في المدائح وغيرها ، وبين مهيار وغيره من الشعراء ، في موضوعات كثيرة ، وبذلك رسم هـــذا الباحث صورة واضحة لمهيار وعصره ، ومن قرأ ديوان مهيار بعد دراسة هذا البحث تجلى له شعره في صورة اوضح ، وفهم منه معاني ادق ، لذلك ارى ان طبع هذا

الكتاب سيضم الى المكتبة العربية تراثا نفيسا » .

هذا بعض ما قاله المغفور له الاستاذ عبد الوهاب خلاف ، وقد عبر صادقا عن رسالة الكتاب ، واثره في الحقل الادبي ، والحق ان المؤلف لم يكن غريبا عن مهيار ، فانه وقد احاط بالادب العربي في كافة عصوره قد خص مهيار الديلمي بفصول ادبية كان قد نشرها بصحيفة البلاغ الادبية سنة ١٩٣١ ثم رأى مجمع اللغة العربية بعد سبعة عشر عاما من هذا التاريخ يعلن عن مسابقة تتعلق بصاحبه ، فهاج وجده القديم اليه .

بدأ الاستاذ الفلال بدراسة عصر مهيار ، وهو عصر زاخر بالتيارات الفكرية ، والزلازل السياسية والنكسات المادية ، فكشف عن مفارقاته الكثيرة ، وراد اصفى الينابيع ، صادرا عن حياد منصف دقيق لا تشوبه دوافع التعصب ، او يغشيه ضباب الاعجاب ، وله في بحثه وثبات ظافرة ، فقد استطاع ان يحدد ميلاد الشاعر على وجه التقريب ، اذ سكتت عنه مصادر الكاتبين ، واستنتجه الشاعر من الديوان استنتاجا ينم عن تأمل جيد ، اذ وجد مهيار يقول عرضا في احدى قصائده (غدرك والخمسون في روضة) فبحث عن زمان القصيدة فوجده في اواخر سنة ٤١٧ فحذف الخمسين ليعرف عام الميلاد على وجه التقريب ، واقول على وجه التقريب لان الانسان دائما يتجاوز عن الكسور الزائدة عن العقد في سنه فقد يكون في عامه الرابع والخمسين او الخامس والخمسين ثم يقول (غدرك والخمسون) ، هذا غير اهتداء الباحث الى نظائر اخرى تؤكد ما ذهب الى تقريبه ، ففي حديث مهيار عن شيبه المبكر لمح الدارس ما يقوى اتجاهه ثم شفع حديث الشاعر عن شيبه بموازنة فنية بين ما قال الشريف وتلميذه مهيار في هذا المجال ، ومن دقته الامينة انه رجع الى الدكتور زكي مبارك ص ٢٥ في امر لمسه بنفسه ، ولكنه اشاد بسبق مبارك متنصلا من فضل كان من المقبول ان يدعيه ، ولذلك مدلوله الخلقي في سجايا الباحث الامين ، وانا بمناسبة الحديث عن الشريف ومهيار اوضح مسألة هامة ، اذ شاع لدى الباحثين جميعا ان الشريف الرضي هو الذي حبب تلميذه في الاسلام فاعتنقه على يده ، اشار الى ذلك ابن الاثير وغيره ، ووافق عليه الاستاذ الفلال حين قال ص ٣١ :

« ومن المحقق ان الفضل في اسلامه يرجع الى الشريف الذي توسم فيــه استعداده لنصرة التشيع ، وكان لبيت الرضي زعامته ، فما زال يوصيه بالاسلام حتى اسلم ، وانه لما يدهشنا ان مهيار لم يصرح في اشعاره التي قالها في استاذه بما يؤيد هذا الفضل ، على حين نراه صراحة ينسبه الى الكافي الاوحد ابي العباس الضبي حيث يقول في مدحته الدالية التي قالها بعد تركه الري مغضوبا عليه :

هو المنقذي من شرك قومي وباعثي على الرشد ان اصفى هواي محمدا
وتارك بيت النار يبكي شراره علي دما اذ صار بيتي مسجدا

ذلك الى جانب اختصاصه بتهنئته باسلامه ، يدلنا على اثر ذلـك الممدوح في دفـع الشاعر الـى اعتناق الشريعة السمحة » .

وهذا الكلام الواضح يحتاج الى نظر فاحص ، لان قول ابن الاثير ومن تابعه ان الشريف هو الذي هدى الشاعر الى الاسلام ، لا يعدل اعتراف الشاعر نفسه بأن الكافي الاوحد كان سبب اسلامه ، اضف الى ذلك انه مدح الشريف ورثاه فلم يشر الى اثر ما له في ذلك ، مع اهميته البالغة ، واثره البعيد في نفس مهيار ، فما الذي يؤخذ من ذلك ؟ يؤخذ منــه ان كلام ابن الاثير ومن تابعه مجرد استنتاج مخطىء وان اعتراف الشاعر وثيقة صادقة تمنع اللجاج .

لقد استوفى الاستاذ الفلال حديثه عــن الاغراض الشعرية التي اتجه اليها مهيار استيفاء شاملا في اكثــر مناحيه ، وقد اتسع حديثه وانكمش وفق اتساع الشاعر وانكماشه فيما تناول من الاغراض ، فهو في المديح والتهنئة ممتد النفس طويل الطريق ، كما هو في الهجاء والحكمة متقارب الخطو ، ضيق الامد ، وكذلك كان الدارس في هذه الاغراض ، وقد تجلى التحليل المتأمل فيما ساقه الاستاذ الفلال من آراء نقدية ، كانت بوارق ساطعة الضوء في بحثه الحي .

ومن الملح هذه الآراء تعليله الرائع لمقدمات القصائد الغزلية اذ يقول ص ١٣٨ :

« وارجو الا يكون فضولا مني ان اتعرض لذكر علته ــ علة النسيب في الافتتاح الشعري ــ فالشاعرية احساس يهيجه الحنان ، ومعاودة ذكريات الهوى ، وقد يركد هذا الاحساس فيجف معين الخيال ، وتذبل نضرة الوجدان ، فيصعب على الشاعر اذا عالج نظم القريض في غرض غير طبيعي كالمديح ان يظفر بمواتاة شاعريته ، وقد يقف جامدا لا يكاد يجيد قولا ، فيعمد الى شحذ خياله ، وسن شبا عاطفته بمعالجة الغزل بما تستلزم من اثارة الحنين ، ولم شتيت الاخيلة ، وعرض صحف مــن الذكريات تتزاحم بتزاحمها المعاني في اجمل حللها اللفظية كأنها الابكار في ميدان انتخابي للجمال ، فــاذا احس الشاعر قدح زناد احساسه تسلل في لباقة الــى غرضه ، وهــو موضوع القصيدة ، فــاذا العصي طيع ، واذا الجديب خصيب ، والشارد مذلل » .

وهذا كلام جيد ، رائع الموقع ، صادق الاصابة ، وقد كشف الباحث عن فطنته النفسية ، حين قال ان المدح غرض غير طبيعي ، لان فيــه شعورا باستعلاء الممدوح واعتلائه على المادح ، مــع ان الانفس قــد جبلت على المساواة ، ثم تمردت في بعض احوالها عليها فأرادت ان تبغضها لتعتلي على الناس ، فلا بد للمدح من تكأة طبيعته هي الحديث عن الحب والشوق والصبابة ، واي الناس ليس له صبابة ، والحب امر غريزي ، ودافع فطري ،

يجد صداه المجلجل والمحرق احيانا في القلوب ، فاذا انتظر الممدوح ان يسمع ما يرضيه من الثناء ففوجيء بالغزل فانها مفاجأة سارة يهش لها كتمهيد جميل ، وكذلك اذا استعصى على المادح القول ، وثقل به الحمل ، فانه يسحب مطيته بجميل الحديث عن الهوى حتى يسلس له القياد فيصاحبه التوفيق » .

وموقف الفلال من المدائح بوجه عام موقف المتبرم الضائق ، ومن عرف انفة علي الفلال وشممه واريحيته . وعلو همته عرف ان موقفه هذا طبيعي من مثله ، فهو ينظر الى المديح كبلاء عام نزل بالشعراء جميعا ولم يخص مهيار وحده فقدم لحديثه عن مدائحه بمقدمة شائقة يقول فيها ص ٨١ :

« المديح موجود منذ خلق الله المكرمات ، وليس يخلو جيل من المادحين الا اذا خلا من السماح والمروءة والشجاعة وما اليها من حميد الخصال وطيب الفعال ، اما ما يصلح ان يكون موضع اخذ ورد ، وجزر ومد ، فهو اتخاذ المدح وسيلــة للكسب ، فالامــة الغنية بمواردها ، المغمورة بثرواتها ، والتي لا تعرف البطالة سبيلا الى ابنائها ، يندر ان تجـد فيها متكسبا بأدبه ـــ يريد عن طريق المدائح ـــ وللحكومات القائمة اثرها في ذلك ، فقد تشجع حكومة ما على احياء المدح التكسبي بكثرة البــذل تقريبا للادباء ، لغرامها بالثناء ، وتعطيف الراي العام نحوها » .

واظن المدح الذي يريده الفلال هنا ما تعمد اليه بعض الحكومات من اصطناع ذوي الاقلام في الصحف ليدافعوا عن السياسة العامة ، وهذا عينه ما كان يريده الحاكم القديم حـــين يسمع المدائح الشعرية مبتهجا ويثب عليها مجزلا ، والفلال في تمهيده الغدر لمهيار انما يلتمس فرصة صريحة لاعلان رأيه الابي ، وقد وجدها حين راى مهيار يقول عن الشعر :

لا تمتهنه في كل سوق فقد	تربح حينـا وبيعـك الخاسر
انظر الى من وفى مدائح من	انت وقـد بات نائما ساهر
واحن عليـه فانـه ولـد	ابـوه قلب وامـه خاطر

اذ قال الفلال معلقا على هذا النص : « ان مهيار في هذه الابيات يبين نهجا نكب عن سلوكه الى حد ما ، لانه اعلن وجوب صيانة الشعر عن مهابط الضعة والامتهان ، بمدح من ليسوا اهلا للمدح ، ولكنه امتهنه في كل سوق ، وقرر استيام ثقيل المهور لمدحته ، في شعر قاله ثـم عاد فأرخص قصائده ، وجعلها ثمنا لارتداء جبة ، وما اظـن شعره في ذم بعض الناس وتصريحه بطلب العطاء مما يرضي العلاء ! » وصدق الكاتب حقا في هذه اللمحة الواعظة .

ثم قال الاستاذ الفلال ص ١٢١ تعليقا على قصيدة لمهيــار :

« ونستطيع ان نستنبط من القصيدة انه كان شرها يرخص كرامته من اجل المال ويكيف امداحه التكيف الذي يضمن له الحصول عليه ، وانه كان له وسطاء يقترحون عليه الثناء ويهيئون له العطاء ، وكثيرا ما اشار مهيار في مدائحه الى ان الممدوح اغرم بشعره وقرظه ، ثم يردف ذلك بطلب الثواب في تصريح كاشف غير مخبوء كأن يقول :

اتاني مـن الانباء انـك مغرم	بفضل مديحي عـارف بتوحدي
حبيب اليـك ان تشد عرائسي	عليك تهادى بـين شاد ومنشد
متى ما تجد لي عند غيرك غادة	مخدرة تغبـط عليهـا وتحسد
نقلت كريم هـزه طيب اصلـه	وواحد قـوم شاقه مدح اوحد
متى تجزها الحسنى بحق ابتدائهما	تزرك بعين تمـلأ السمع عود

فاذا ترك الاستاذ المديح الى الهجاء فاننا نجده يقول :

« كان في قدرة مهيار ان يكون هجاء لاذعا ، لان هذا الغرض وثيق الارتباط بالمديح ، وهل المديح الا تنسيق عقود من كريم الفضائل يبدو الممدوح بها للناس حاليا ، وهل الهجو الا سلب تلك الفضائل او اسناد نقيضها اليه فيعود المذموم منها عاطلا ، انه كما يستطيع الباني ان يكون هادما كذلك يستطيع المادح ان يكون هاجيا ، ولكن مهيار لم يكن من الهجائين السابقين مع سبقه في المدح ، وقلما تجد متكسبا بشعره تكسب مهيار يعطى مرة ، ويمنع اخرى فيمدح معطيه ولا يذم مانعه » .

فهذا الحديث عن الهجاء موضع نقاش بيني وبـــين الاستاذ الباحث ، لانه صدى لاقوال سبق بها قدامة بن جعفر وابن رشيق القيرواني وغيرهما ، حينما زعموا ان مـــن يستطيع ان يذم فيقول انه ما فعل كذا بدل ان يقول انه فعل كذا ، وهذا في رايي استنتاج ذهني لا يفطن الى الدخائل النفسية ، فليست الاماديح والاهاجي تلفيفات ذهنية في كل حين ، او تمرينات عروضية يقوم بها ناظم متمرس ، ولكنها وليدة نفس تحس وتشعر ، وفي النفوس البشرية نفوس تنفعل بالمكرمات فتهتاج وتسوق المدائح في اسهاب مرن طويل ، ولكنها نفسها تضيق بالمثالب ضيقا يأخذ عليها سبيل القول فلا تستطيع ان تفرج عـــن غضبها الساخط ببيت واحد ، لان طبيعتها الكريمة تنكر هذا اللون من التقدح ، وحين تنساب اليه مكرهة تقوله عن رهبة واستكراه ، واذن فليس كل من يستطيع ان يبني يستطيع ان يهدم ، لان الهادم في البناء الحسي المشيد بالطوب والاسمنت غير الباني للجدار ، ومن يستطيع هدم الجدار قد لا يستطيع بناءه والعكس صحيح ، فالرجوع الى الطبائع ينكر ان يكون كـل مادح هجاء ، او كل هجاء مادحا ، وللنفس اغوار دفينة تتطلب السبر الدقيق .

وفي الكتاب وثبات ظافرة لا نستطيع الالمام بها جميعها في هذا النطاق المحدود ، ويجد القارىء امثلتها فيما تحدث فيه المؤلف عن الشكوى ومكانها من انتاج الشاعر ، وتأثيرها النفسي في اعماقه ، وهو حديث واقعي صادق عن شاعر شكاء بكاء بلغ به الضيق النفسي مبلغا جعله يقول :

عيش كـلا عيش ونفس مالها	من متعة الدنيا سوى حسراتها
ان كان عندك يـا زمان بقية	ممـا تضيم بـه الكرام فهاتها

حديث مع النفس

شكوت الشجا للنفس في هداة الدجى ... وافضيت بالاشجان والنجم غاسق
معـــا نتساقى اكؤس الوجد بيننا ... ونسكب نجوانـــا فيهتـــز خافـــق
اقول لهـــا اغفى الانـــام فحدثي ... فاني كما تدرين في الدهر « صادق »
وعنـــدك منـــي محنتـــي وتعلتي ... وعندي منـــك السر ليس يفارق
صحبتك في دنيـــاي غـــير مجانف ... وحسبي ضمير منـــك بالله واثق
كفاني اني لـــم اذق مـــن لذيذها ... ولـــم انتهز منها كما التذ ذائق
ولازمني فيهـــا عـــذاب وشقـــوة ... فمـــا لان عزمي للذي بي ضائق
وبينا اناجي النفس والليل صامت ... وقور اذا روح مـــن الفجر عابق
فقالت سلام انمـــا العمر نفحـــة ... تنشق منها الطيب من هو ناشق
وما سورة الآلام والوجد والضنى ... سوى طائف يرتادنا وهـــو زاهق
اذا اشرب الايمان قلب سما بـــه ... وبصره بالحـــق والحـــق شائـــق
فباركت نفسي انهـــا « مطمئنة » ... يظللها لطـــف مـــن الله سامـــق
وعاهدتها انـــي ساطوي مودتـــي ... لهـــا مثلما يطوي المـــودة عاشق
واحفظ منها النصح ما عشت دائبا ... علـــى سنن لا تعتريـــه البوائق

النجف الاشرف ... محمد رضا آل صادق

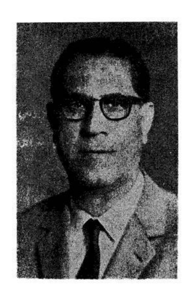
كما تجد من وثبات الكتاب العلمية ما كشف عنه المؤلف من اخطاء عروضية حاول ان يقيمها ، وان ينقلها من بحر الى بحر كي تستقيم ! وفي الابيات ما لا يقبل العلاج مهما حاول الاستاذ ، وقد ادان صاحبه في كثير مما عرض له عن نصفة وحياد .

اما الموازنة بين الشريف وتلميذه مهيار فموفقة كل التوفيق ، ولو كان المجال الزمني فسيحا لدى الاستاذ لجاء بأكثر مما جاء به ، لان المجمع قد حدد امدا للبحث لا يزيد عن نصف العام ، وان كنت لا ارى رأي الفلال فيما اخذه من التناقض الصريح لدى مهيار حين يكون باسما فرحا في بعض المدائـــح وعابسا منقبضا في بعضها الآخـــر ، لان التناقض المعترض عليه لا يكون في موضعه النقدي الا اذا وقع في قصيدة واحدة ذات زمن محدد ، اما اذا اختلفت القصائد باختلاف الازمنة المتعددة فانها حينئذ صدى لنفس متقلبة تنقل صادقة من حال الى حال فالشاعر يعبر عن اللحظات التي يعيشها ، وقد يكون مكتئبا وهو يمدح زيدا من الناس فيعبس كمـــا يكون مبتهجا وهو يمدح انسانا آخر فيضحك .

ولعل لدى الكاتب وجهة نظـــر اخرى طواها دون عرض ، وكنا نود ان ينشر ما يراه دون طي متحفظ لتكتمل الرؤية في وضوح كعهدي به فيما كنا نتجادل فيه من قضايا الفكر منذ حين .

هذا بعض ما يقال عن اثر الفلال في تحليل مهيار اما كل ما يقال فيضيق عنه المجال .

المنصورة ... محمد رجب البيومي



حنانيك يا ربي

تعرض صديقنا الاستاذ عبد الرزاق الهلالي ، الى عارض توقف كليتيه عن العمل وعجزهما عن اداء وظيفتهما الطبيعية ، فتزايدت بدمه مادة (اليوريا) القاتلة ، فلما نقل الى (مدينة الطب) في الوقت المناسب ، بودر بعلاجه بغسل كليتيه بالكلية الصناعية ، وبذلك تم اسعافه وابعاده عن اثر مادة اليوريا التي كادت تقضي عليه . وحيث ان كليتيه لا تزالان عاجزتين ، فقد اوصي بمراجعة مدينة الطب مرتين في الاسبوع للافادة من خدمات هذا الجهاز الطبي .

عبد الرزاق الهلالي

*

حنانيك يا ربي فلولاك لم اعش ... بهذي الدنى ارجو الشفاعة يا رب
حنانيك اني لم اكن اعلم الكلى ... لها في اذى جسمي التكاسل والكرب
فقد كنت الهو وهي تفعل فعلها ... بجسمي فيا الله كم ضعفها صعب
فبينا انا في رائق العيش سادر ... وفي هذه الدنيا احقق ما اصبو
شعرت بأني قد تولاني الضنى ... وجذوة آمالي بدت بالضنى تخبو
وبت اعاني من امور كثيرة ... وصرت اذا ما سرت في مهمة اكبو
فأسرعت للدكتور اشرح حالتي ... فقال بفحص الدم تنكشف الحجب
فنفذت ما اوصى به وهو عالم ... بأن خلايا الدم مرتعها خصب
فاظهر هذا الفحص اني فريسة ... لسم هو (اليوريا) الذي امره عجب
وان الكلى قد اعجز السم فعلها ... وباتت جهازا قد تهارشه العطب
فما لي الا ان اسارع راجيا ... شفاءا بدار الطب فهي لنا أرب
ولم آلف حتى جاءني معشر بهم ... تفاخر دنيا الخلق ، والعلم والطب
فقالوا رعاك الله انك مسعد ... فقد جئت في وقت به عظم الخطب
فقد زادت اليوريا زيادة راغب ... بقتلك عمدا اذ بها اضطرب القلب
واصبح ضغط الدم بالجسم عاليا ... وانت بهذا للضنى والاذى نهب
فما لك الا ان تبارك نعمة ... من الله واشكر انه المنعم الرب
فلولا جهاز (الدايلسز) لما بدا ... بامكاننا شيء ، فذا طبه صعب
فهذا جهاز قد اعد بدقة ... لغسل الكلى اذ فيه يستدفع الكرب
ويطرد ما في الدم من مرض غدا ... له في خلايا الدم موقفه الصلب

فقلت تعالى الله اني لشاكر ... له الحمد هذي نعمة فيضها عذب
فها انذا في رحمة الله مؤمن ... وما قد اتى العلم الحديث له اصبو
وهاكم يدي كي يفتذى بدمائها ... جهازكم ما في أمانته ريب
فقالوا رعاك الله ما دمت مؤمنا ... وتعلم ان العلم ميدانه رحب
تعال الينا كي ننظف كلية ... به انه في خدمة الناس لا يكبو
فكم من مريض ، وشكت ان تهده ... سموم بها اضحى وليس لها طب
ولكنه في ذا الجهاز تعادلت ... قواه واضحى لا ينوء به الركب

فقلت اذن اني لفي طوع امركم ... خذوني اليه انني مغرم صب
وما هي الا لحظة كنت بعدها ... مسجى وجسمي للجهاز له قرب
ومد ذراعي كي يمص دماءها ... رضيع له في المص ديدنه سحب
وآخر يأتي بالدماء نظيفة ... ويودعها بالجسم كي ينهض القلب
وبت على هذا النظام ممددا ... مدى ست ساعات طوال لها صخب
فلما تناهى المص والدفع بعدها ... اعيد دمي ما فيه من وضر شوب
فقمت وقد احسست اني متعب ... فقالوا استرح واصبر فقد يذهب التعب
وبينا انا في راحة وهناءة ... افكر في ما قد اتى العلم والطب
اتوا بجهاز الضغط كيما يحددوا ... مدى ضربات القلب فالقلب قد يكبو
فلما بدا اني على خير حالة ... وان كياني لا يهدده شغب
نصحت بأن اغدو الى البيت طالما ... بدت صحتي في حالة ما بها كرب
وقيل ابتعد عن كل اكل به اذى ... تزيد به اليوريا فيستعظم الخطب
فان بالبروتين يكمن داؤها ... فاياك ان تهفو له انه حرب
وخذ جدولا يعطيك كل شريحة ... من الاكل حتى لا يضيق بك الدرب
وكن حذرا من اكل بعض فواكه ... كثير بها البوتاس والملح والصلب
ولا تنس ان تأتي الينا معاودا ... بيومين في الاسبوع كي يسعد القلب
وكي تتصفى الكليتان ففيهما ... من السم ان السم مركبه صعب

فنفذت ما قالوا وصرت مداوما ... وليس لحظي في مداومتي عتب
واسلمت امري للذي هو خالقي ... وما هو الا الواحد الصمد الرب
اذا شاء ان يحيي العظام رميمة ... يقول لها كوني فتنهض لا تكبو
ويبعث فيها الروح وهو لقادر ... على ان يعيد الميت حيا ، فلا ريب
وهل لي الا ان اسائل رحمة ... من الله ارجوها ليرتفع الكرب
فقد قال يا عبدي ادعني استجب وكن ... على ثقة اني لدعواك في قرب
فليس بعيدا ان يحرك كليتي ... ويأمرها كيما يعاودها الجذب
فتفرز عن جسمي السموم براحة ... فلا وضر اذ ذاك فيها ولا شوب
الهي هذا مطلبي وهو هين ... عليك ، فانقذني بعونك يا رب

عبد الرزاق الهلالي

بغداد ــ اعظمية

محلة نجيب باشا ــ شارع عزيز احمد شهاب

القصيدة الغنائية وتطورها

عند شعراء مدرسة ابولو

بقلم الدكتور محمد قشوان

* * *

اذا جاز لنا ان نجعل للحياة فنا فان الشعر هو فن الحياة الاول ، والشاعر اقدر الناس على فهم الحياة ، وهو بشر يتحدث الى بشر ، ويعمل جاهدا كي يعثر على اجود الالفاظ في اجود نسق .

ومن المؤكد ان الشعر ليس شبيها بالحياة ، ولكنه يوقظ حياة جديدة فينا ويعجل بظهورها ، ومن اجل هذا يعمل على ان يخصب في عقولنا استجابات كانت مخزونة في نفوسنا هامدة جامدة .

والشاعر يصنع نفسه في قصيدته من جديد ، متخيلا مختارا منظما وسط ركام الاشياء المبهمة التي تتدافع في نفوسنا لتتحول الى الفاظ واصوات ، ويأتي القارىء بدوره فلا يتعرف على الشاعر فحسب من حيث هـو انسان موهوب ، وانما يكشف مداخل ومسارب جديدة لم يحسها في نفسه من قبل .

وقد واكب فن الشعر ركب الحياة الاول ، منذ اللحظة الاولى التي انفرجت فيها اسارير الكون ، وتهلل وجـه الطبيعة بالبشر ، وهي ترقب اول مخلوق من ابناء البشر .

ففي فجر الطبيعة الاول رن في انحاء الوجود صوت كأنه الحلم المحبوب يطوف بالجفن ، او كأنه المعنى السامي يمر بالذهن ، واذا هذا الصوت يتجلى غناء للسامعين ، ويمشي رجاء للنائمين ، ولم يكن هذا الصوت سوى صوت الشاعـــر .

عاش الشاعر قبل ان يوجد في ضمير الغيب ، يسبح في سموات اثيرية شفافة يحلم باللحظة التي تتفتق فيها الحياة عـن مولده ، ويمني نفسه بمستقبل واعد علـى الارض ، ولما ان هبط الى الارض هبط مشوقا اليها ، فاذا هو يرى من امرها عجبا ، واذا ابناؤها يجدون ويهزلون ، ويصارحون ويراؤون ، ويأملـون ويألمون ، ويفرحـون ويشجنون ، واذا شعره يتحول الى سجل حافل ، بكل تلك المتناقضات التي تسبح في بحر الوجود .

واذا كان ادبنا العربي قد حفل بعدد كبير من الشعراء الذين اتخذوا مـن الشعر معزفا ينشدون عليـه اعذب الالحان ، وجعلوه وسيلة للترجمة عن روح الوجود وجماله منذ عصري الجاهلية وصدر الاسلام حتى العصر الحاضر ، ثم لا تزال قصائدهم تتردد في سمع الزمان ، واناشيدهم العذاب تـرف في ارجاء الطبيعة والكون تعطر الانسام وتضمخها بعبيرها الفواح فان جهود الدارسين والباحثين في ميدان الدراسات الادبية والنقدية في الماضي والحاضر ، قد كشفت عن جوانب كبيرة مـن هذا الشعر ، وسبرت اغواره ، ووضحت سماته وخصائصه وتعرضت لكل ما اثير حوله من قضايا ومشكلات ، ثم لا يزال صداها يتردد قويا مجلجلا في محيط الدراسات الادبية والنقدية حتى العصر الحـديث .

واذا كان الشعر العربي قد تناوشته عوامل كثيرة مـن القوة والضعف ، والنضارة والذبول ، والازدهار والاضمحلال ، على اختلاف المراحل التاريخية التي مر بها ، فانه مع بواكير هذا القرن بدأ ينهض من عقاله ، ويتحرر من اغلاله التي كبل بها خلال فترة الحكم العثماني لمصر وباقي بلدان العالم العربي تقريبا ، ويشهد تحولا خطيرا على ايدي مدرسة البارودي التي اعادت للقصيدة العربية ديباجتها الرائعة التي كانت عليها ايام العباسيين وسواهم .

وقد قامت في اعقاب تلك النهضة المباركة مدارس جديدة تنافس مدرسة البارودي وشوقي في الشعر ، وتدعو الى التجديد بأوسع معانيه واشمل مدلولاته فكانت مدرسة الديوان التي ضمت ثلاثة من كبار الشعراء هم : عبد الرحمن شكري ، والمازني والعقاد ، الذين حفل شعرهم بالمضامين والتجارب الجديدة في منهج القصيدة ، واتجاهها في الفكرة والتصوير ، والذين نقدوا شعر حافظ وشوقي ، كما نقدوا في غير هوادة او مهادنة ادب المنفلوطي .

وفي عقب تلـك الخصومة قامت مدرسة ابولـو الشعريـــة .

وقد نشأت هذه المدرسة متأثرة بالشعر الرومانتيكي والرمزي في فتـرة الشعور الجارف باستقلال الشخصية المصرية ، والاحساس الغامر بالحرية الفردية ، والتشبع بروح الثورة .

قامت تلك المدرسة متمثلة في جمعية ابولو الشعرية التي اعلن الدكتور احمد زكي ابو شادي عـن قيامها في سبتمبر من عام اثنين وثلاثين وتسمائة والف .

وقد اصدرت هـذه الجمعية مجلة باسمها ، صدر العدد الاول منها في سبتمبر من نفس العام .

صدر من مجلة ابولو اربعة وعشرون عددا على مدى

عرض لرسالة الدكتوراه التي قدمتها الى كلية اللغة العربية بجامعة الازهر باشراف الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، وحصلت بهـا على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى ومع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة وتداولها مع شتى الجامعات .

عامين ، ضمت ثلاثة آلاف صفحة ، احتوت على اكثر من سبعمائة قصيدة وقطعة ومنظومة ، الى جانب اربعمائة وخمسين دراسة تحلل وتنقد . شارك في المجلة اكثر من ثلاثمائة قلم لادباء وشعراء ، بعضهم كان معروفا ، وبعضهم كان مغمورا لم تطرق اسماؤهم الاسماع .

وقد كتب الدكتور ابو شادي في العدد الاول يقول : « ان السر في قيام الجمعية والمجلة هو الرغبة في احلال الشعر مكانته السامقة الرفيعة ، وتحقيق التآخي والتعاون المنشود بين الشعراء »، ويقول : « واذا كانت «الميثولوجيا» الاغريقية تتغنى بأبولو رب الشمس والشعر والموسيقى فنحن في حمى هذه الذكريات التي اصبحت عالمية نتغنى بكل ما يسمو بجمال الشعر العربي وبنفوس شعرائه » .

وقد بدات صلاتي الادبية تتوثق بتراث تلك المدرسة في الفترة السابقة على مرحلة العالمية (الدكتوراه) اذ وجدت في تلك الدراسات التي اتيح لي الاطلاع عليها في تلك الفترة كثيرا من السمات والملامح التي مازت هذه المدرسة عن غيرها من مدارس الشعر في العصر الحديث .

وقد شجعني ذلك على الاتصال بالتراث الشعري والنقدي لتلك المدرسة في مصادره الاصلية ، وكان لهذا كله آثار مخلدة باقية دفعتني الى القيام بعبء تلك الدراسة .

واذا كان شعراء تلك المدرسة قد عاشوا في كنف الطبيعة بزرعها واشجارها ، وحيوانها وطيورها ، وهوامها وحشراتها ، وبحارها وانهارها وعيونها وآبارها ، وتسمعوا في خفر واستحياء الى حفيف الاشجار ، والى هتاف الطيور في البكور والآصال ، وراقبوا في حبور مشرق حركة الهوام والحشرات ، وركبوا البحار والانهار ، وشاهدوا فيها عجائب المخلوقات ، ثم ابحروا مرة اخرى في نفوسهم وسلكوا دروبها المعتمة ، وارتادوا مساربها المبهمة ، فأيقظوا ساكن الاحاسيس ، وخامد المشاعر ، وغمست اشعارهم بأنماط شتى من الصور والخيال ، فان الحياة التي عشتها في طفولتي ويفوعتي لا تبعد كثيرا عن هذه الحياة ، التي ترجم عنها شعراء ابولو في جل ما خطته يراعاتهم الشعرية من قصائد واشعار تزخر بها دواوينهم الكثار .

ولما كان الشعر العصري هو لسان الحياة العصرية ، والحياة العصرية ذات صلات شتى بالماضي ، وذات تطلع الى المستقبل فليس غريبا ان يكون موضوع هذا البحث « القصيدة عند شعراء مدرسة ابولو » .

وقد تناول بعض الدارسين والباحثين هذه الدراسة في كتب ، وبحوث قامت في الجانب الكبير منها على المنهج التاريخي دون اهتمام واضح بالمنهج الفني ، او المنهج التكاملي ، وفي ظني ان الدراسة الفنية للظواهر الادبية هي ما ينبغي أن تنهض عليها الدراسات الجامعية ، وعلى الذين يكلفون انفسهم بدراسة التراجم الشخصية او بدراسة الظواهر التاريخية للاتجاهات والمذاهب الادبية والنقدية ان يقتصدوا في السرد التاريخي ، وان تتجه جل عنايتهم الى دراسة الظواهر الفنية ، لان ذلك في ظني يتفق وجدية تلك البحوث والدراسات .

وانني اذ اتقدم بهذه الدراسة الفنية الجادة عن القصيدة عند شعراء مدرسة ابولو لنيل شهادة العالمية (الدكتوراه) في الادب والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الازهر الشريف ليحدوني الامل في ان تعطى تلك الدراسة كل ما تصبو اليه نفسي من آمال .

هـذا ... وقد بنيت البحث على مقدمة وخاتمة تجمعان فيما بينهما خمسة ابواب على جانب كبير من الاهمية على النحو التالي :

الباب الاول : بعنوان : القصيدة .... مفهومها وبناؤها الفني وقد اشتمل على اربعة فصول :

الفصل الاول : في مفهوم الشعر والقصيدة والقصيد والرجز قديما وحديثا ، وقد اشرت في هذا الفصل الى عدة نقاط اثبتها ملخصة فيما يلي :

١ ـ اختلفت الآراء في تحديد ماهية الشعر قديما وحديثا ، واذا كانت عناصر الشعر عند القدماء تنحصر في اللفظ والمعنى ، والوزن والقافية مع القصد والنية ، فانه يتمثل في هذا العصر في التجربة الشعرية ، والموسيقى والخيال والصورة .

٢ ـ ناقشت تعريف القدماء للشعر من انه الكلام الموزون المقفى ، وبينت ان هذا التعريف ابعد الاشياء عن روح الشعر ، اذ ان هذا التعريف من شأنه ان يضيق حدود الشعر ، ويقتل الشاعرية ، لانه بمقتضاه يصبح اكثر النظام شعراء على بعد الشقة بين الشعر والنظم .

٣ ـ وضحت ان هذا التعريف لم يزل يفرض سلطانه على شعراء المدرسة المحافظة في العصر الحديث ، وان بوادر التمرد والخروج عليه قد بدات بظهور المدارس التجديدية في الشعر العربي الحديث .

٤ ـ سقت في تلك الدراسة كثيرا من تعريفات العرب والغربيين للشعر ، وبينت ان شعراء مدرسة ابولو لا يعتدون فيه بالوزن ولا بالتقفية ، وانما يعتدون بطاقاته الكامنة فيه ، وبنبضاته وارتعاشاته ، وهمساته وايحاءاته ، وبما يشتمل عليه من دقيق الحس ورقيق الشعور .

٥ ـ عقبت على تعريفات شعراء ابولو ونقادها للشعر بعدة ملاحظات من بينها :

ـ ان الناس سوف يختلفون في الاجابة عن هذا السؤال : ما هو الشعر ، وان هذا الاختلاف سوف يستمر باستمرار الحياة نفسها .

— لم يعر شعراء ابولو القصد والنية في الشعر ادنى اهتمام ، وقد وضحت سبب ذلك في موضعه من الدراسة .

— النثر عندهم يقابله النظم ، اما الشعر فقد يكون منظوما ، وقد يكون منثورا ، ولم يعد النثر مقصورا على كونه لغة العقل ، والشعر على كونه لغة العاطفة ، بل اصبح النثر في احيان كثيرة معرضا للعواطف القوية ، والاحاسيس الجياشة والمشاعر الفوارة .

— لم تعد الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية) الاساس الذي ينهض الشعر عليه بل اصبح احساسهم بالموسيقى من المعاني المبهمة او الغامضة ، التي قد لا يمكن تحديدها في احيان كثيرة .

٦ — عرضت في هذا الفصل ايضا تعريفات القدماء والمحدثين لكل من القصيدة والقصيد والرجز ، وناقشتهم في تلك التعريفات بما يتفق واتجاهات الفلسفة الجمالية الحديثة .

اما الفصل الثاني : فكان عن المعجم الشعري عند شعراء ابولو ، وقد عرفت بمصطلح المعجم الشعري ، ثم عرضت عرضا سريعا لهذا المعجم في عصور الادب المختلفة من الجاهلية وصدر الاسلام حتى العصر الحديث ، محاولا ربطه بالنواحي التاريخية والسياسية والنفسية والاجتماعية وغير ذلك ، اذ ان تلك النواحي جميعها قد القت بكثيف ظلالها على المعجم الشعري ، ولونته تلوينا خاصا يشير الى ان طبيعة الحياة المتغيرة قد لونت المعجم الشعري عند شعراء ابولو بما يتفق وما طرأ على العالم من تبدل وتغيير .

ثم قسمت المعجم الشعري الى قسمين بارزين :

أ — المعجم الشعري المفتوح : واعني به ذلك الحشد الهائل من الالفاظ والاساليب الشائعة عند شعراء المدرسة جميعا .

ب — المعجم الشعري المغلق : واعني به ذلك الرصيد الكبير من الالفاظ والاساليب الشائعة في انتاج كل شاعر منهم على حدة .

وهذان الاصطلاحان من الاضافات الجديدة التي لم يسبق ان اشار اليها باحث او دارس من قبل .

كان ابو شادي لا يستسيغ العنجهية التي ترفض صقل المألوف ، وتؤثر احياء الرميم من الكلمات الثقيلة البالية التي لا يقبلها الذوق العصري من امثال : السخام لهباب القدر ، والراقول لطلاع النخلة ، والمرعاس لمدق الطريق والنوردجة للقبعة ، والتقازيح للتوابل ، وغير ذلك .

ومن اجل ذلك شاع في انتاجهم كثير من الكلمات العصرية ، والشعبية ، كما ادخلوا كثيرا من الكلمات الاجنبية على المعجم الشعري ، وكان ذلك ناجما عن اهتمامهم بالشعر المترجم ، وتشجيعهم لحركة الترجمة من اجل تطعيم ادبنا بألوان عديدة من تلك الثقافات .

وقد حققت في هذا الفصل عن طريق دراسة المعجم الشعري المفتوح نظرية التحليق الشعري التي تنهض على معجم شعري خاص ، وعلى لون من الموسيقى يتسم بالعذوبة والشفافية والغموض .

ثم عرضت آراء بعض المنهجيين في تلك الالفاظ التي تنهض عليها تلك النظرية وناقشتهم في ذلك مناقشة علمية جادة على نحو موضوعي رشيد .

وقد حققت ايضا مسألة على جانب كبير من الاهمية ، وهي مسألة استعمال شعراء ابولو لكثير من الالفاظ السابحة في الاضواء والظلال والارواح والاشباح والشذى والنور والعطر وغير ذلك ، فقد كان ابو شادي شديد الاهتمام بالنور — مثلا — حتى عده خليل مطران شاعر النور الاول في العربية ، واول شاعر جعل للنور قداسة .

واما الفصل الثالث : فكان عن الشكل والمضمون في القصيدة ، وهذه قضية نقدية قديمة بلا شك ، لذا عرضت لها عرضا خاطفا عند القدماء ، ثم تأنيت في عرض آراء شعراء ابولو ونقادها فيها ، مشيرا الى ان النزعة الى استقلال الفرد في التعبير قد فرضت على هؤلاء الشعراء البعد عن النماذج التقليدية في الشعر من اجل ابراز شخصيتهم ، ولذلك حاولوا التجديد بالخروج على نظام الشكل المنهجي للقصيدة الى الشكل الجديد .

وقد نوهت في هذا الفصل بالجهد الذي بذله شعراء المدرسة من مناداتهم بتمثيل الشعر للتجارب الانسانية والنفسية والوجدانية التمثيل الصادق دون ان يصبح الشاعر اسير تلك الفلسفة المنهجية الموروثة في صنع القصيد .

وكان الفصل الاخير عن الوحدة الفنية في القصيدة ، وهي قضية نقدية قديمة كذلك ، واذا كنت قد اسرعت في عرض تلك القضية عند القدماء فاني قد تأنيت في عرضها عند شعراء ابولو ونقادها ، ولم يفتني في معرض تلك الدراسة ان انبه الى ان حديثهم عن تلك الوحدة لم يخرج عما اشار اليه سلفهم من نقاد العصر من امثال مطران وشكري والمازني والعقاد وميخائيل نعيمة وغيرهم .

كما لم يفتني ان انوه بما كان لهم في تلك القضية من اضافات مشيرا الى ان تلك الاضافات الجديدة انما استقوها اصلا من اطلاعهم الوسيع على آداب الغرب .

ثم عرضت لتطبيق تلك الوحدة على الشعر الغنائي ، والقصصي ، والملحمي ، والتمثيلي عند شعراء تلك المدرسة مبينا ما ادخله هؤلاء من تجديد على نظام القصيدة في تلك الناحية .

اما الباب الثاني : فكان عن الاجناس الشعرية عند شعراء مدرسة ابولو وقد تشعب الحديث فيه الى ثلاثة فصـول :

الفصل الاول : وفيه عرضت للاغراض والنزعات الشعرية للقصيدة الغنائية عند شعراء تلك المدرسة ، ومن تلك الاغراض التي ذكرتها :

١ ــ الشعر الوصفي : وقد وضحت في هذه الدراسة ان الوصف عندهم لم يقف عند الناحية التقريرية المجردة ، بل مزجوا بينه وبين مـا تمور به نفوسهم مـن مشاعر واحاسيس وفي سبيل ذلك استعملوا التشبيه والاستعارة وسائر الوان المجاز استعمالا شفافا ، وكانت جراتهم في تلك الناحية من المسائل التي قررتها الدراسة ، وقد كان علي محمود طه مـن ابرز شعراء ابولو في باب الوصف الشعـري .

٢ ــ الشعر الوطني : وفيه يعمد شعراء تلك المدرسة الى الجهد والتصريح تارة ، والهمس والتلويح تارة اخرى ، وكان حديثهم عن معالم مصر الحضارية لونا من الوان هذا القسم ، كما كان حديثهم عن اشخاص الزعماء الوطنيين من امثال سعد زغلول ومصطفى كامل لونا من الوان الشعر الوطني كذلك .

٣ ــ شعر الرثاء : وقد قسمته الى ثلاثة اقسام :

أ ــ رثاء من ماتوا من شعراء المدرسة او اصدقائهم واقاربهـم .

ب ــ رثاء الزعماء الوطنيين في مصر والعالم العربي .

ج ــ رثاء الممالك الزائلة .

وفي القسم الاول يتمثل الصدق ، ويتجلى الوفاء كاملا لهؤلاء الذين جفت في حلوقهم اناشيد الحياة ، وقد اجريت بعض الموازنات بين تلك المراثي ، هادفا من ورائها الى بيان سماتها وخصائصها ، في الالفاظ والاساليب والصور والخيـال .

ووضحت في القسم الثاني ان هذا اللون لم يكن يقصد به اشخاص الزعماء بقدر ما كان يقصد منه من اثارة نخوة الوطنية في النفوس مـن اجـل الظفر والفوز بالحرية والاستقـلال .

اما القسم الثالث فقد خمدت فيه وقدة العاطفة ، بينما اطلت النزعة الوطنية براسها من خلاله على نحو ملحـوظ .

٤ ــ شعر الفلسفة والتأمل والتصوف : وقد وضحت مـا بين شعر الفلسفة وشعر التأمل المجرد ، والتأمل المشوب بالفلسفة والتصوف من فروق ، واشرت الى ان شعراء ابولو كتبوا الشعر الفلسفي وشعر التأمل المجرد ، والتأمل المشوب بالفلسفة والتصوف ، والدراسة في تلك الناحية تمتاز بالعمق والموضوعية والجدة والابتكار .

٥ ــ الشعر الفكاهي : وقد اشارت الدراسة الى قلة اشعارهم في هذا الغرض ، وبينت سبب تلك القلة في موضعها من البحث .

٦ ــ بكاء الاطلال : وقد تميز شعراء ابولو في هذا الغرض بأن كتبوا قصائد كاملة فيه ، دون الاقتصار على بيت او عدة ابيات في المطلع على النحو الذي كان سائدا في الشعر المنهجي القديم ، كما كان لشعراء تلك المدرسة فلسفة خاصة في الوقوف على الاطلال وقـد كانت تلك الفلسفة نابعة من اهتمامهم بموضوع الشكوى والالم على عادة كبار الرومانتيكيين المذهبيين .

٧ ــ شعر المجون : وقد كان شعرهم في هذا الغرض مشوبا ــ في الغالب ــ بروح الفكر والتأمل ، وقد انحدر بعضه الى مستوى الشعر الماجن عنـد امريء القيس والنابغة من الجاهليين ، وابي نواس مـن العباسيين وغيرهـم .

٨ ــ ثم عقبت ذلك كله بالشعر العلمي ، مبينا ما بينه والشعر العلمي القديم من فروق مشيرا الى ان رائد تلك المدرسة كان يرى انه من السهل ان يستوعب الشعر من طرائف الطب والهندسة وشتى العلوم اذا وجد الشعراء الذين يتأثرون به على هذا النحو القائم ، ومزج نظريات تلك العلوم بالخيال ، والعاطفة والمعارف الانسانية .

وكان الفصل الثاني : عن الشعر القصصي والملحمي ، وقد ناقشت فيه قضية الملحمة في الشعر العربي مناقشة مركزة خاطفة ، ووضحت ان الملحمة في الادب العربي لا ينبغي ان تكـون صورة مطابقة لمثيلاتها في آداب الامـم الاخرى ، ذلك لان لكل شعب ظروفه ، ولكل بيئة ملابساتها التي تحدد طبيعة الاجناس الادبية التي يعمد اليها ادباؤه وشعراؤه ، وانطلاقا من ذلك بينت ان شعراء ابولو فوق انشائهم للقصص والاقاصيص الشعرية انشأوا الملاحم التاريخية والفلسفية والاجتماعية والرمزية والادبية .

وقد صححت زعم الدكتور محمد مندور القائل بأن الدكتور ابا شادي لم يجاره في اتجاهه القصصي احد من شعراء مدرسته ، اذ اكدت الدراسة خطأ هذا الزعم مدعومة في ذلك بالدليل .

وكان الفصل الثالث : عن الشعر المسرحي والاوبري : وفيه تعرضت الدراسة لفن جديد لم يكتب له البقاء طويلا هو فن الاوبرا ، فتحدثت عن مدارس الاوبرا في الغرب ، ومنزلة هذا الفن بين الادب والموسيقى ، والفرق بينه وبين « الاوبريت » وعوامل فشله واخفاقه حتى انه لم تقم له قائمة حتى الآن .

واما الباب الثالث : فكان عـن الخصائص الفنية للقصيدة عند شعراء ابولو ، ويقع هذا الباب في ثلاثة فصول ايضا على النحو التالي :

الفصل الاول : عن الخصائص المتصلة بالموضوعات وطبيعة التجارب الشعرية ومن تلك الموضوعات التـي عالجتها الدراسة :

١ ـ موضوع الحب والمراة : وقد كان حديثهم في هذا الموضوع تنفيسا عن رغباتهم المكبوتة ، وآمالهم المقيدة ، وتعويضا عن ظلم الدهر لهم ، وتحامله عليهم ، وتخفيفا مـن واقعهم الدامي ، ومرقى يسمون عليه فوق العالم الارضي ، وقد وصل اهتمامهم بهذا الموضوع الى حـد التقديس والتهالك على عبادة البدن او عبادة الروح او البدن والروح معا .

٢ ـ النزعة الانسانية : فقد صوروا في اشعارهم مظاهر البؤس ، وابرزوا بعض الجوانب المظلمة في المجتمع من مثل شقاء الفلاح وضياع المشرد والبغي وغير ذلك .

٣ ـ الطبيعة : وقـد تفردوا بشخصية متميزة في حديثهم عن الطبيعة ولقد بلغ اهتمامهم بها حـد الاندماج فيها ، وابتعدوا عن الوصف الحسي لمشاهدها ومرائيها ، ويعد شعرهم في الطبيعة لوحة ناطقة بجمال الكون وجلاله ، ولا غرو فقد كانت الطبيعة لهم بردا وسلاما حينما يشتد عليهم لفح الحياة .

٤ ـ الحنين الى مواطن الذكريات : وكان ذلك نابعا من نظرتهم الانطوائية ، واحاسيسهم المفعمة بالالم ، الى درجة تغنيهم به على عادة الرومانتيكيين المذهبيين .

٥ ـ الشكوى والالم : وكان ذلك ناجما عن نزعتهم الرومانتيكية كذلك ، وهي من النزعات الغالبة عليهم ، وقد قررتها الدراسة على نحو علمي جاد .

واما الفصل الثاني : فقد كان عن خصائص الاسلوب والطريقة الفنية في الاداء وقد تناولت من تلك الخصائص في هذا الفصل :

١ ـ الاعتماد على معجم شعري خاص .

٢ ـ الميل الى استخدام الاساليب الرمزية .

٣ ـ التعاطف مع الاشياء ، والحلول الشعري فيها .

٤ ـ تجسيم المعنويات ، او تحويلها مـن المجال التجريدي المحض الى المجال الحسي الخالد ثم بث الحياة فيها في بعض الاحيان .

٥ ـ منح الحياة الانسانية لما ليس بانسان .

٦ ـ تجريد المحسوسات .

٧ ـ التعبير بالصورة .

٨ ـ استعمال الكلمات الموحية .

٩ ـ استخدام الالفاظ المتصلة بالطبيعة وبالجـو الروحـي .

١٠ ـ التكـرار .

١١ ـ استخدام الالفاظ الرشيقة ، ذات الخفة على اللسان وحسن الوقع في الآذان .

١٢ ـ استخدام الكثير مـن الاسماء الشائعة في (الميثولوجيا) اليونانية ، وكذلك في التاريخ الفرعوني القديم.

وكان الفصل الثالث : عـن خصائص الموسيقى الشعرية عند شعراء المدرسة . ويعد هذا الفصل مـن اصعب الفصول اذ وجدت فيه مشقة ورهقا ، وكان اعظم ما عوضني عن تلك المشقة وذلك الرهق ان الحديث في هذا الفصل امتد حتى شمل كثيرا من الامور التي التفت اليها شعراء ونقاد ابولو في تلك الناحية كما كان لاسهامي الكبير بالراي والترجية والمناقشة والتقويم في جل ما تعرضت له بالدراسة في هذا الفصل خير عوض عما جوبهت به من صعوبات في هذا المجال .

وكان الباب الرابع : عن النزعات التجديدية الاخرى في القصيدة عند شعراء المدرسة ، وقد نهض هذا الباب على اربعة فصول على النحو التالي :

الفصل الاول : عن الاتجاه الرومانتيكي عندهم ، وقد قدمت لهذا الفصل والفصول التي تليه بتمهيد وضحت فيه الاسباب التي اثرت في انتاج هذه المدرسة ودفعت بشعرائها الى النهوض بالشعر ، والتجديد فيه .

ثم وازنت بين رومانسية هذه المدرسة ورومانسية الغرب مـن جهة ، ثـم بينها وبين رومانسية شعراء « الديوان » من جهة ثانية .

وقد وضحت ان رومانسية هذه المدرسة كانت اقرب الى رومانسية شعراء المهجر وبخاصة في الاسلوب والالفاظ والصور والخيال .

واما الفصل الثاني : فكان عن الشعر الرمزي عند شعراء المدرسة ، وقد وضحت في معرض تلك الدراسة ان ابن وهب عقد للرمز بابا في كتاب نقد النثر ، بين فيه ان العرب استعملت الرمز كثيرا في الشعر ، وان القرآن مشتمل على كثير من تلك التعابير الرمزية كذلك .

ثم وضحت خصائص الرمزية من حيث الموضوعات ، ومن حيث الاسلوب ، واشرت الى ان الرمزية التي ذكرها ابن وهب وغيره من نقادنا القدماء تختلف عـن الرمزية المذهبية في كثير من الاتجاهات .

ثم اشرت الى ان الرمزية ، كما تكون في اللغة ، تكون

في الفلسفة وروح الغيب كما تكون في الصور والموسيقى والموضوع ، وقد عالج شعراء ابولو تلك الانماط جميعها في شعرهم .

ثم ان الرمزية اتجهت عندهم اتجاها نفسيا ، فالاحاسيس النفسية المتراكمة والمشاعر المتداخلة ، لا يمكن نقل العدوى بها الى القارىء او المستمع كما هي دون الاعتماد على ذلك الاتجاه النفسي الرمزي ، وقد برع شعراء المدرسة في تلك الناحية .

والفصل الثالث : عن الاتجاه العمودي الكلاسيكي وتجديدهم فيه ، وقد عرضت في هذا الفصل لنظرية عمود الشعر عند القدماء كالمرزوقي وغيرهم ، وانطلاقا من تلك النظرية تمت باجراء موازنة واسعة ، هادفا الى بيان ما ادخله عليها شعراء ابولو من تجديد والى ما كان لهم فيها من اصالة وابتكار .

ثم كان الفصل الاخير : عن شعر التصوير ، وهو ما لم يشر اليه باحث من قبل ، وقد توخيت في تلك الدراسة ان اكشف عن اعماق هذا اللون وابعاده وبينت انه وان امتد الى عصور الادب المتقدمة الا انه يوجد ثمة فروق بينه وبين نظيره عند الابوليين اذ كان شعراء تلك المدرسة وعلى رأسهم ابو شادي يقدمون لنا مثلهم العليا في الجمال ، ثم يستوحونها القيثارة الشعرية المترجمة ، فاذا بنا نقرأ ترجمة لنفوسنا وخواطرنا في الوقت الذي تستمتع فيه اعيننا بهذا السحر الفني .

وقد اشرت في تلك الدراسة الى كثير من النقاط التي تعطى لهذا اللون من الشعر حدوده الخاصة وابعاده الحقيقية ، من امثال الموازنة بينه وبين النحت والتصوير وغير ذلك .

ثم نأتي الى الباب الاخير ، وهو بعنوان : مدرسة ابولو في ضوء النقد الحديث وقد اشتمل على فصول ثلاثة ينتهي مطافنا عند الانتهاء من الفصل الثالث منها :

الفصل الاول : وفيه تعرضت بالدراسة الى المآخذ التي وجهت الى شعراء تلك المدرسة ، وقد ناقشت تلك المآخذ ، وما اتهمها خصومها به من تقصير على ضوء النقد الموضوعي الجاد .

وقد اوليت مصادر تلك المآخذ عناية خاصة ، اذ اعتمدت في عرض هذا الموضوع على مجلة ابولو الشعرية وعلى كثير من الصحف والمجلات والجرائد المعاصرة لها كالبلاغ والجهاد والسياسة الاسبوعية والوادي وغيرها .

وقد اتضح لي ان تلك المعارك قد بدات وكان رائدها الصدق ، ثم لم تلبث ان تحولت الى الاسفاف والمهاترات والمبالغة في النزاع الشخصي والمذهبي وغير ذلك .

وقارىء تلك الدراسة يدرك انني رتبت معارك المدرسة مع خصومها ترتيبا زمنيا قائما على التتبع المرحلي الدقيق لبوادر هذا النزاع ووصولا به الى غايته التي توقف عندها ، وبهذا تصبح تلك الدراسة صورة صادقة لكل ما كان بين ابولو وخصومها من نزاع .

وفي الفصل الثاني : حاولت تأصيل فكرة « المدرسة » في الادب ، معتمدا في ذلك على المعاجم اللغوية ، ومستأنسا بما اشار اليه علماء مصطلح الحديث من شروط لقيام المدارس في هذا العلم ، مراعيا ما بين علم مصطلح الحديث والادب من فروق ، مركزا على ما بين العرب والغربيين من اختلاف في الفهم والذوق ، والمناقشة والوعي ، وان الاصطلاحات التي توضع في الغرب لا ينبغي ان نطبقها بحذافيرها كما هي دون اصلاح او تقويم وبخاصة في مجال الدراسات الادبية التي هي محل للاختلاف نظرا لاختلاف الاذواق فيها .

وانطلاقا من هذا المنهج حكمت على جمعية ابولو الشعرية ومجلتها بأنها مدرسة شعرية جديدة في تاريخ الادب العربي الحديث .

وكانت نهاية المطاف عند الفصل الثالث : الذي اشرت فيه الى اثر شعراء ابولو في شعراء جيلهم وفي شعراء اليوم ، وكان من ابرز النقاط التي اشرت اليها في هذا الفصل ما يلي :

١ — خطأت من توهموا بأن من كتب او سطر شيئا على صفحات ابولو يعد من اعضائها اذ اثبتت الدراسة ان تيار ابولو الجارف قد احتوى مجموعة من شعراء تلك الفترة ، فتأثروا بهذا الزحف الادبي الجديد ، وكانت قصائدهم ودراساتهم وابحاثهم التي نشرتها المجلة تعبيرا صادقا عن تأثر هؤلاء بهذا الاتجاه الادبي الجديد .

٢ — اشرت الى ان تيار المدرسة على الرغم من شدته في الثلاثينات وبداية الاربعينات الا انه لا يزال يتأثر به الكثيرون من شعراء اليوم .

٣ — بينت ان هذا الزحف الادبي الجديد لم يقف عند حدود مصر الجغرافية بل تعداها حتى وصل الى كثير من بلدان العالم العربي ، ولعل ذلك الكشف يفتح ابواب الامل في المستقبل القريب بظهور دراسة اكثر شمولا واتساعا يكشف صاحبها عن مدى ما وصل اليه تيار ابولو الجارف من تأثير في شتى البلدان العربية ، ولتصبح تلك الدراسة حلقة في سلسلة تلك الدراسات التي تناولت تلك المدرسة ، وهي دراسات متصلة الحلقات ، وكلها من الركائز القوية ، والدعائم الثابتة التي ينهض عليها الادب في العصر الحديث .

ثم كانت الخاتمة التي ضمنتها تلخيصا وافيا للبحث ، مع العناية بابراز الجديد فيه ، واهم ما توصلت اليه من نتائج .

وترجع اهمية هذا البحث الى ما يلي :

١ — خلو المكتبة العربية حتى الآن من دراسة تجمع الخصائص الفنية والموضوعية للقصيدة عند شعراء مدرسة ابولو ، اذ ان تلك المدرسة لم تأخذ حظها من عناية الباحثين

على الرغم مما كتب عنها من دراسات .

٢ ـــ تعد هذه الدراسة اول دراسة تصنف انتاج تلك المدرسة على نحو منهجي سليم .

٣ ـــ كما تعد اول دراسة تلتزم بالمنهج العلمي الجاد من حيث قيامها على المنهج التكاملي الفني مخالفة في ذلك معظم الدراسات التي سبقت في هذا الموضوع ، والتي كانت تجنح الى المنهج التاريخي غالبا .

٤ ـــ اشتمال الرسالة على العديد من مشكلات النقد وقضاياه ، مع الاسهام فيها بالراي والتوجيه والتقويم ، وما يترتب على ذلك من آثار في محيط الدراسات الادبية الحديثـــة .

٥ ـــ الاهتمام الكبير الذي نالته مدارس الشعر في العصر الحديث ومن بينها مدرسة ابولو .

٦ ـــ للقصيدة عند شعراء ابولو خصائص لا توجد عند غيرها من مدارس الشعر في العصر الحديث ، لذلك كانت هذه الزاوية جديرة بمزيد من الدراسة والبحث ، للكشف عن تلك الخصائص ، وبيان ما كان لها من اثر في الادب العربي الحديث .

والجديد في هذا البحث ما يلي :

١ ـــ عرض الاعمال الكاملة تقريبـــا لمدرسة ابولو عرضا شاملا دقيقا ، وذلك لاول مرة في تاريخ الدراسات الادبية الحديثة .

٢ ـــ دراسة المعجم الشعري ، ورصد ظواهر التجديد فيـــه منذ عصري الجاهلية وصدر الاسلام حتى العصر الحديث ، مع العناية بدراسته لدى شعراء تلك المدرسة .

٣ ـــ استخدام مصطلحات لم يسبق لباحث او دارس استخدامها من امثال : المعجم الشعري المفتوح ، والمعجم الشعري المغلق وغير ذلك ، مع تحديد مفهومها وتطبيقه على انتاج شعراء ابولو .

٤ ـــ ربط المعجم الشعري المغلق بحياة صاحبه ، واعتباره مقياسا صادقا للحكم على الشاعر وتحديد درجته ومنزلتـــه .

٥ ـــ تحقيق نظرية التحليق الشعري مـــن خلال الدراسة المتأنية للمعجم الشعري المفتوح لـــدى شعراء المدرسة مع مناقشة الآراء السابقة في تلك النظرية وتوجيه القول فيها .

٦ ـــ عرض مشكلة اللفظ والمعنى عند نقاد ابولو بأسلوب جديد مع الموازنة بين آرائهم في تلك القضية وآراء السابقين ، وانصاف تراثنا العربي فيما وجه اليه مـــن اتهامات في التجديد في الالفاظ او في المعاني .

٧ ـــ مناقشة مصطفى عبد اللطيف السحرتي في القول بحرية النظام داخل الفاظ القصيدة مراعيا ما بين قواعد لغتنا العربية وقواعد اللغات الاجنبية من فروق .

٨ ـــ القول بعدم امكان تطبيـــق الوحدة العضوية بمفهومها الحديث على القصيدة الغنائية ، وقصر تطبيقها على الشعر الموضوعي ، مع الاشارة الى الاصول التي تحفظ للقصيدة الغنائية وحدتها ، وتفصيل القول في تلك الناحيـــة .

٩ ـــ بســـط القول في اغراض المدرسة ونزعاتها الشعرية ، مع رصد الظواهر المحيطة بها على نحو غير مسبوق اليه .

١٠ ـــ مخالفة بعض الباحثين في القول بنجاح ابي شادي في الشعر العلمي من حيث فشل غيره وتحقيق القول في تلك المسألة .

١١ ـــ تخطئة بعض النقاد في القول بأن الشعر بغير علم اقرب الى الهراء والسخف منه الى الاعتدال والحق ، وان اجهل الشعراء بالعلوم اشدهم سخفا وهذرا .

١٢ ـــ مخالفة بعض الباحثين في القول بعدم مجاراة واحد من شعراء ابولو لابي شادي في اتجاهه القصصي ، وبيان ما كان لشعراء المدرسة من آثار في تلك الناحية .

١٣ ـــ القاء الضوء على فن لم يكتب له البقاء طويلا وهو فن الاوبرا مع تفصيل القول في نشأته ومدارسه وبيان درجته الفنية ومنزلته بين فني الادب والموسيقى وفشله واسباب ذلك .

١٤ ـــ تفصيل القول في الخصائص الفنية للقصيدة عند شعراء المدرسة سواء مـــا يتصل منها بالموضوعات وطبيعة التجارب الشعرية ، او بالاسلوب والطريقة الفنية في الاداء الشعري او بالموسيقى الشعرية .

١٥ ـــ الاشارة الى ما كان لشعراء المدرسة من تجديد في الاتجاه العمودي الكلاسيكي .

١٦ ـــ عرض المعارك الادبية للمدرسة عرضا كاملا ، ومناقشتها في ضوء النقد الموضوعي .

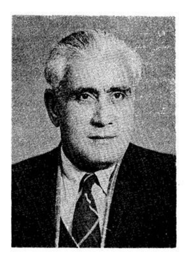
١٧ ـــ دراسة شعـــر التصوير عنـــد ابي شادي ومدرسته ، مع ذكر الفروق الفنية بينه وبين النحت والتصوير الزيتي ، وذلك لاول مـــرة في تاريخ الدراسات الادبية الحديثـــة .

١٨ ـــ وضع مفهوم جديد للمدرسة الادبية وتطبيقه على جمعية ابولو ومجلتها ، مع مناقشة الآراء السابقة في تلك القضية ، وتوجيه القول فيها .

١٩ ـــ حصر الرواد الاصليين للمدرسة مع بيان اثرهم في شعراء جيلهم وفي شعراء اليوم في مصر وفي غيرها من البلاد العربية .

وقد بلغت جملة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في اعداد تلك الرسالة ثلاثمائة وخمسين مـــا بين مصدر ومرجع وديوان وقصة شعرية ، ومسرحية ودورية .

القاهرة **محمد قشوان**



خليل ايوب الحتي

خليل ايوب الحتي
شيخ شعراء لبنان

بقلم فوزي عطوي

* * *

كنت فتى صغيرا ، بعد ، يوم نقلني والدي من مدرسة راهبات مار يوسف في حارة حريك ، احدى ضواحي بيروت ، الى مدرسة الفرير نوتردام ، في فرن الشباك ، فقد كان نظام مدارس الراهبات يسمح بقبول الطلاب الذكور حتى السابعة من عمرهم ، فاذا تجاوزوا ذلك العمر كان عليهم ان ينتقلوا الى مدرسة اخرى للذكور ، وهكذا كان ، فقد عمل والدي بنصيحة الراهبة الام التي اشارت عليه بنقلي الى احدى مدارس الفرير .

وفي مدرسة الفرير ، زاملت عددا من الرفاق الذين ينتمون الى مختلف المناطق اللبنانية ، لكن طالبا واحدا منهم استأثر بعاطفتي اكثر من سواه ، لانـــه ينتمي الى بلدة « الدامور » المجاورة لبلدتي « حارة الناعمة » .

وببراءة الطفل وصدقه ، اخبرت اهلي عن سروري العظيم بوجود هذا الطالب في صفي ، فلما عرفوا ان اسمه ايوب يوسف الحتي (وهو مدير معهد بيبلوس حاليا) ، ادركوا على الفور انه ابن الشاعر المرحوم يوسف الحتي مؤسس « ارزة لبنان » في المهجر ، وابن شقيق الشاعر خليل ايوب الحتي ، مؤسس « الشعر القومي » و « الزجل اللبناني » و « ارزة لبنان » ، بعد وفاة شقيقه يوسف .

وكانت المفاجأة عظيمة بالنسبة الي عندما قال لي والدي وجدي ان هذا الطالب هو من « ابناء خالنا » ، اذ لم استطع استيعاب معنى ان يكون ثمة نسب بيننا نحن المسلمين السنيين ، وعائلة هذا الطالب المسيحي الماروني ، حتى اذا شرح لي اهلي الروابط التاريخية القديمة التي تشد بعض عائلات الدامور الى بعض عائلات حارة الناعمة ، فتآخوا في السراء والضراء ، وشاطر بعضهم بعضا كل ما يمر بهم من افراح واتراح ، احسست بسعادة قصوى ، اذ ادركت ، وانا فتي طري العود بعد ، هـــذا المعنى الانساني العظيم الذي يتجاوز التعصب الطائفي الى الايمان العميق بوحـــدة الانسان ، ووحدة الاديان في منطلقاتها واهدافها ، وكان ذلك هو اول درس حفظته من دروس الحياة ، ولم استطع ان احيد عنه ، بعد ذلك ، قيد شعرة واحـــدة .

ويبدو ان زميلي اخبر اهله بدوره عن الشعور المتبادل الذي يحمله نحوي ، وهكذا دعوته لزيارتنا مرة في بيتنا بحارة حريك ، ومرة ثانية في بستاننا في حدث بيروت ، حيث كان مسقط رأسي ، كما دعاني الى زيارته في منزله مرة ، ومرة ثانية رتب لي زيارة لعمه الشاعر الكبير خليل ايوب الحتي الذي كان يصدر آنذاك مجلة شعرية لبنانية اسمها « الشعر القومي » ، ثم اضطر الى ابدالها باسم « ارزة لبنان » بعد ذلك ، مع الحفاظ على امتياز «الشعر القومي» .

اذكر من تلك الجلسة ما يذكره تلميذ صغير في المرحلة الابتدائية ، من عاطفة ابوية صادقة غمرني بها الشاعر الكبير ، ومن حديث طيب حول القرابة المكتسبة التي تجمع بين عائلته وعائلتنا ، وعن اجداده واجدادنا ، كما ذكر لي كيف ان والدي فاز ، ذات مرة ، بالجائزة الاولى في مسابقة شعرية زجلية نظمتها مجلته ، وكان عاتبا عليه لانه كان منصرفا عن النظم ، او مقلا فيه ، ولم ينس ان يذكرني كيف انه هنـأ والدي ووالدتي بقصيدتين احداهما في مناسبة خطوبتهما والثانية في مناسبة زواجهما ، ونشرهما على التوالي في مجلته « الشعر القومي » .

اولى المحاولات

وتمر الايام ، ونقرأ في كتاب « المشوق » للاستاذ ا. الفتال وهو من طبع اليسوعيين ، قصائد رومانطيقية كثيرة لشعراء المهجر اللبنانيين ، فتدفعني مطامحي الطفولية الى محاكاة تلك القصائد ، حتى اثبت لمن يكتب الشعر في عائلتنا ، ولانسبائنا واصدقائنا من الشعراء ، انني قادر مثلهم على قرض الشعر ، ومن اولى محاولاتي « قصيدة » اذكر منها بيتا واحدا وهو :

مر النسيم على البلاد البعيدة   نحطم ما حطم من بيوت واحجار

ورغم الوزن المحطم ، والمعنى الطفولي الساذج المتناقض ، فقد اصر رفاقي آنذاك على انني انتحل الشعر ، وان مثل هذه الابيات « الروائع » لا يمكن الا ان تكون لمثل ايليا ابي ماضي ، او جبران خليل جبران ... وكنت ادرى الناس بمدى صدقي .. فحسبت نفسي شاعرا .. واتكلت على الله !!

واستمر في محاولاتي ، رغم تأنيب اهلي لي ، لان النظم سيصرفني عن دراستي التي يحرصون فيها على ان احافظ دائما على المركز الاول في صفي ، حتى اذا انتقلت في المرحلة التكميلية الى الكلية العاملية في بيروت ، شعرت بمدى ضعفي في اللغة العربية ، اذا ما قيست معلوماتي فيها ، بما اعرفه من اللغة الفرنسية التي اتقنتها ، وانا صغير بعد ، كتابة ومحادثة .

ومن طريف محاولاتي في هذه الفترة ، انني في الاسابيع الاولى من التحاقي بالكلية العاملية ، تعرضت لاهانة من استاذ اللغة العربية ، لكنها لم تثبط همتي ، بل كانت ردة الفعل ، عندي ، اقبالا نهما على المطالعة ، حتى استقامت لي اللغة ، وشعرت بقدرتي على الكتابة والقراءة باللغة العربية ، مثل اتقاني للغة الفرنسية .

اولى التهنئات

وفي العام الدراسي ١٩٥٣ــ١٩٥٤ ، احصل على ثلاث شهادات بانهاء المرحلة التكميلية (البريفيه الفرنسية ، والبريفيه اللبنانية ، والبريفيه المدرسية) ، واذا بأولى التهنئات ، من خارج الاسرة ، تأتيني قصيدة طيبة من خليل ايوب الحتي نشرها في العدد رقم ٣٣٧ بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٩٥٤ من مجلته « ارزة لبنان » ، وفيها يقول :

نلت الشهادة وبعدك بعمر القمر   وبالاربعة وعشرة القمر يبقى كمال
ويبقى القمر بشماع نورو منغمر   بنور الشهادة انت بتزيدو جمال

سموك فوزي وكان اسمك بالاصول   حتى بميدان الذكا تقدر تجول
وحتى بحفلات العلوم تقدر تقول   بشهادتي فوزي وكفى هالفوز عال

بهنيك يا فوزي وذكاك مشعشعك   ويهديك انعامو ... والله معك
بشهادتك تهنايتي ، وفي مطلعك   انشودة الارزة ، حكي عيه الدلال

بهنيك تهناية نسيب بتنحسب   سآل بيك عن نسبنا المكتسب
من عصر ماضي بيننا بيوجد نسب   خذها تهاني مقدمه من ابن خال

وبعد هذه القصيدة ، قال لي خليل ايوب الحتي ان ابواب « ارزة لبنان » اصبحت مفتوحة امامي ، انشر فيها ما اريد ، وهكذا بدات انشر قصائد ، بعضها زجلي ، وبعضها الآخر منظوم ، ومعظمها لم يندرج في اي من الدواوين التي اصدرتها ، لكنني اكتفي هنا بالاشارة الى عناوين بعضها ، وتواريخ الاعداد التي صدرت فيها ، ومنها : الطائفية (كانون الثاني ١٩٥٥) ، ارزة لبنان (آذار ١٩٥٥) ، الفقير (ايار ١٩٥٥) ، وغيرها وغيرها مما يمكن الرجوع اليه في مجلدات « ارزة لبنان » .

التعاون الادبي

واستمرت صلتي الوثيقة بخليل ايوب الحتي ، ثم مارست الصحافة بعد نيلي شهادة البكالوريا ، محررا في جريدة « بيروت المساء » لصاحبها الوزير والنائب السابق الاستاذ عبدالله المشنوق ، ثم رئيسا للقسم الادبي فيها ، وبعدئذ اصدرت ديواني الاول « دمم وفم » في طبعتين : الاولى عام ١٩٥٨ والثانية عام ١٩٦٠ ، ثم توالت مؤلفاتي الشعرية والنثرية ، وترجماتي لروائع القصص العالمية ، كما تراست تحرير مجلة « رسالة التربية » ، وساهمت في تحرير عدد كبير من صحف البلاد العربية ومجلاتها ، وحنيني الاكبر كان متجها ابدا الى المجلة التي رعت اولى خطواتي ، مجلة « ارزة لبنان » والى خليل ايوب الحتي الذي عجم كنانة اصدقائه ، في اواخر ايامه ، فكانوا لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة ، وكان من المناظر المؤثرة ، في غرفة نومه التي لزمها في اواخر حياته ، انه كان يعلق صورة كبيرة للعذراء مريم ، عليها السلام ، وصورة اخرى لزوجته التي سبقته الى رحاب الله ، وصورا قلائل لاخوانه ، منها صورتي ، وصورة الصديق الكبير الاستاذ فاضل سعيد عقل .

مكارم لا تنتهي

وخليل ايوب الحتي الذي لا يكاد بيت في لبنان يخلو من اثر من آثاره الشعرية ، كان لسان الخير ، مجسدا في القوافي الشعرية الراقية الخلق ، واللطيفة المعنى والمبنى : فالى جانب القصائد التي كان ينشرها للشعراء اللبنانيين والمهجريين ، كان كل عدد من مجلته يحمل اعدادا لا تحصى من قصائده : فهو شريك اصدقائه ومعارفه في الخطوبة ، والزواج ، في الوفاة والهجران ، في نيل شهادة او الترفع في الوظيفة ، بل لا ابالغ في شيء اذا قلت انه كان القيثارة الرقيقة الحلوة التي سجلت التاريخ اللبناني الاجتماعي منذ الثلاثينات ، حين ترك سلك البوليس ، وانتقل الى المسرح الشعري ، والى تأسيس اول مجلة زجلية لبنانية ، فكانت تلك مغامرته العظيمة التي توالدت فيما بعد ، ونشأ بعدها عدد من المجلات الزجلية اللبنانية المتخصصة .

وكان لي ، شخصيا ، من مكارمه ، ما يدعوني الى المفاخرة بمحبته ورعايته التي اثقلت كاهلي بالمكارم ، فما استطعت ان افي منها سوى القليل الاقل : فكلما كنت انال شهادة ، كان لي منه قصيدة ينشرها في ارزة لبنان ، واطرف قصائده تلك التي نشرها عام ١٩٦٤ عندما نلت الليسانس في الحقوق، واجازة الدولة اللبنانية في الحقوق، والى جانبها صورتي التي كان قد نشرها عام ١٩٥٤ ، عندما حزت على شهادة البريفيه .

ثم اعقد خطوبتي واتزوج من السيدة ليلى البيسار ، فينشر تهنئتين ، ويتوفى جدي المرحوم محمود عطوي ،

وبعد ذلك شقيقي الشاب المرحوم وفيق عطوي ، فيشارك بدموعه وقصائده ، كأقرب الانسباء الاحباء . ثم كان لبناتي نصيب من شعره ، عند ولادة كل منهن ، لا بل كنت اذا زرته وهو يعاني من وحدته ، ومن جحود اصحابه ، واولئك الذين كانوا مجهولين لا يعرفهم احد ، فأطلق لهم على صفحات « ارزة لبنان » شهرة جعلتهم من الشعراء المرموقين ، اراه شديد الفرح ، عظيم الاحتفاء بي ، وكثيرا ما كانت تلك الزيارات ، المرتقبة والمفاجئة على السواء ، توحي له بالشعر الاخواني اللطيف الطريف ، ومن آخر ما كتبه (ولم يتسن له ان ينشر لان المجلة كانت محتجبة يومذاك) قصيدة قدمها الي اثناء زيارة كان يرتقبها مني مع بعض الاصدقاء ، ومنها قوله :

اهلا وسهلا بكل ما الداعي علم   شعشع ببيتي متل نار على علم
سحر الجمال واللطف بيهز الشعور   مش قدر ما بيهزني سحر القلم

ختيار شابت بالقوافي لمتي   ومن علتي قلت وخفت همتي
من طلتك يا بدر ، مع « بن عمتي »   من وهج نورك تاه عن قلبي الالم

ومنها قوله :

فوزي اجا ، وهيهات   هالحظ بعد يمر
يا ابيض الرايات   يا موج القف در
يا كاتب الآيات   قدام فكر الحر
يا مبدع الكلمات   فيها القلم بيصر
محامي وشاعر في شهاداتك   ودكتوراه تلبقلك التيجان

وينهيها بقوله ، رحمه الله :

عطيه من الله وموهبه تبقى الفنون   اصعب حروف الضاد في ذهنك تهون
بوصي يا فوزي حط خرزه بسترتك   خايف على هالذهن صيبات العيون !

شاعر متعدد المواهب

وكانت مواهب خليل ايوب الحتي الشعرية اكثر من ان يحيط بها عدد : كان الرجل يكتب الشعر الوطني ، والغزلي ، والرثائي ، او يكتب المدح او الوصف او التهنئة ، وكأنه يكتب خبرا صحفيا عاديا ، حتى لتشعر كيف ان الاوزان والقوافي كلها اسلست له قيادها ، فلم يكن قيد من قيود الشعر ليعيقه عن الابداع الفني . وفي يقيني ان خليل ايوب الحتي ، لو اوتي من الثقافة اللغوية فوق ما اوتي ، ولو انه اتجه نحو النظم باللغة الفصحى ، لجاء بالعجب العجاب كمثل هذا الذي جاء به في مجال الشعر الزجلي اللبناني .

ومن يعرف ، كمعرفتي ، حرقة خليل ايوب الحتي ، وهو يرى المصاعب تحول دون طبع ديوانه الضخم ، ثم من يرجع ، كرجوعي ، الى مجلدات « ارزة لبنان » التي احتفظ بها ارثا ثمينا ، فضلا عن مخطوطات كثيرة ليس لدى احد نسخ عنها ، بل هي خاصة بي ، عهد الي بها خليل ايوب الحتي ، رحمه الله ، اقول : من يعرف ذلك كله ، يدرك ان كل استشهاد بشعر خليل الحتي يشكل ظلما لعبقريته الفنية لانه سيكون اجتزاء لا يوفيه حقه على الشعر والناس .

ومن نماذج شعره ، قوله عن لبنان :

يا حبيبي ، يا جبل لبنان   يا عيشتي ، يا مهبط الايمان
يا نور عيني ، ويا امل روحي   يا دم قلبي ونبضة الشريان

يا عز من رزق الدني والمال   في اناشيد الصبا استهلال
فيك الوحي والانس والآمال   انت الدني وقبلك دني ما كان

ومن غزلياته ، قوله :

قد مثل الغصن بمهب الرياح   والسر غامض تحت لولحة الوشاح
انمشيت،علىخطواتها تحنيالغصون   ولو تمايلت عا ردافها تغار الرماح

ومن اقواله الانتقادية التي تتناقلها الالسن :

بلادنا بتحليلها وتعليلها   مثل اول جيل آخر جيلها
بلاد دنبة كلب لو قولبتها   مثل ما بتحطها بتشيلها

ومنها ايضا :

في امرين عليهم جدل   بيضيموا القلب الحساس
تحصيل الحق من العدل   وتحصيل المال من الناس

الحتي واحمد شوقي

ومن طرائف ما حدث له ان احمد شوقي كان كثير التردد على لبنان ، وذات مرة التقى امير الشعراء في عيادة احد الاطباء الشاعر خليل ايوب الحتي ، وكان ذلك على الارجح بعد حادثة الاصطدام التي جرت لاحمد شوقي على طريق مصيف عاليه ، والى ذلك يشير الاخطل الصغير ، يوم رثى شوقي ، حيث يقول :

شوقي ، اتذكر اذ «عاليه» موعدنا   نمنا وما نام دهر عن مقادره
سالتنيه رثاء ، خذه من كبدي ،   لا يؤخذ الشيء الا من مصادره !

وفي ذلك اللقاء بين الحتي وشوقي ، يبدو ان كلا منهما قد اعد شيئا في الثناء على الطبيب ، فلما وصل خليل ايوب الحتي الى البيت التالي الموجه الى الطبيب :

السكين بتخطف ارواح   وسكينك بترد الروح

هتف شوقي معجبا ، مثنيا على شاعرية شيخ شعراء لبنان .

ثلاث حرقات

ومن الحرقات التي نغصت على خليل ايوب الحتي بعض هناءته ، ثلاث :

اولاها : ذلك المخطط الذي كان ولا يزال مضروبا على بنايته المؤلفة من طابقين في منطقة مار نوهرا بفرن الشباك بدعوى شق الاوتوستراد ، الامر الذي اضطره ، رغم الملاحقات والمراجعات والعرائض الكثيرة التي قدمها مع سكان الحي ، شعرا ونثرا ، ومنذ ايام الشيخ بشارة الخوري ، الى بيع بنايته ، والاكتفاء بشقة جديدة في عين الرمانة .

وثانية الحرقات : انتظاره الطويل ، وبغير جدوى ، لقانون تقاعد الصحفيين ، وكنت شديد الحرص على عدم مجابهته بالواقع ، واعلامه بأن القانون ، حتى في حال صدوره ، لن ينطبق عليه ، لان الدولة تعتبره من اصحاب الصحف (على رغم كل الخسائر المادية والعقبات الكثيرة

التي كانت تعانيها المجلة ، ناهيك بصاحبها) ، ولا تعتبره بالتالي من المحررين المشمولين بأحكام القانون العتيد .

اما الحرقة الثالثة : فكانت ديوانه الذي لم يكتب له ان يصدر ، في حياته ، رغم كل النوايا الطيبة التي ابداها اصدقاؤه ، في هذا السبيل . والمرجو ان يدفع الوفاء من تبقى من الندرة الطيبة من المعجبين بشعره وخدماته للتراث اللبناني ، ان يعمدوا الى طبع هذا الديوان ، فضلا عن كوننا لا نرى سببا لاحجام وزارة الاعلام اللبنانية عن تبني مثل هذا المشروع التراثي المفيد .

حكاية الاوسمة

ولقد كانت ثمة حرقة رابعة ، تهيأت الظروف بشكل متأخر لازالة بعض آثارها ، اذ كان خليل ايوب الحتي يرى الاوسمة التقديرية تعطى يمنة ويسرة ، فـلا يناله منها رشاش او رذاذ . وكان من دواعي سروري ان يتاح لي ، ولجمع من اصدقائه الغيارى ، مشاركة الخليل فرحتيه في الحصول على وسامين تقديريين : الاول برتبة قومندور من المنظمة الانسانية السامية ، والثاني وسام الاستحقاق اللبناني من الحكومة اللبنانية .

وقبل حصوله على الوسامين ، كنا بذلنا من المساعي ما لا يوصف ، لكن الدولة آنذاك ادارت لنا اذنا صماء ، وعينا عمياء ، والى هذا اشرت في الكلمة المرتجلة التي مهدت بها لقصيدتي عنه ، يوم اقمنا له في بيروت مهرجانا تكريميا بعيد الصدى والاثر (١٩٦٤/١١/١٥) ، وقلت :

« لو قيل لهم ان صعلوكا من صعاليك الزمان استهتر بكل كرامة ، فأوصله استهتاره الى مقام الزعامة ، لعلقوا على صدره مئة وشاح والف وسام . اما ان يقال لهم ان خليل ايوب الحتي غنى خمسين عاما للبنان احلى القصائد ، فانهم يديرون للقائل اذنا صماء ، وعينا عمياء . ولكن ، لا الوسام تطاول الى مستواك ، ولا الوشاح ارتقى الى مقـام شعرك العبقري الرفيع . وحسبك ان تكون انت وساما على صدر محبيك ، وعارفيك ، وتادري فضلك ونبلـك ... » .

قصيدة التكريم

واما القصيدة التي جعلت عنوانها «اليوبيل الذهبي» ، والتي القيتها في ذلك المهرجان بمناسبة مرور خمسين عاما على نظم خليل ايوب الحتي الشعر ، وتأسيسه اول جريدة زجلية متخصصة ، فقد جاء فيها (يراجع ديواني « تحت الرماد » ص ٦٧) :

طوباك طوباك في يوبيلك الذهبي   يا ساكب العطر في كاس من الذهب ،
لله درك ، لم تزحف الى رتب ،   الشعر اعلى من الالقاب والرتب !
لولا قصيدك لم نطرب الى وتر ،   ولا تلهـف صـاد لابنـة ...
بيوت شعرك في كل البيوت غنى   فما تكافأ بالاشعار والخطب !

يـا رب منتقد ان بيننا نسب   أنعم وأكرم وبارك فيه من نسب
ان كنت باهيت فيك الناس قاطبة ،   يا خير خل ، فقد باهيتهم بأب ،

جاران نحن ، وهل للناعمي هوى   الاك يا حامل « الدامور » بالهدب ؟
جاران نحن ، وجار النبل مثل اخي   وفي القوافي كلانا اخوة الادب !
بيني وبينك قربى ، لست انكرها   قربى التآخي ، وقربى الفضل والحسب
قربى جدود تخلوا عن تعصبهم ،   الله والارز عنـدي خـير معتصب
الدين يحيـي قلوب المؤمنين بـه   كمـا تروى زهور الروض بالحبب
الدين توحيد شمل ، ليس تفرقة   فكيف تختصم الدنيا بلا سبب ؟ !
دين الهلال لنا ، دين الصليب لنا   ودين لبنان حب الارز والعرب !

واتوقف قليلا ، قبل ان استأنف اثبات ابيات القصيدة ، لاشير الى ان هذه الابيات الاخيرة كانت في عداد ما استشهد به وزير الاعلام الاسبق الاستاذ هنري طربيه ، عندما القى كلمته باسم رئيس الجمهورية اللبنانية في حفلـة تكريمي بوسام الارز الوطني بتاريخ الثالث من كانون الثاني ١٩٧٢ ، في الندوة اللبنانية .

وكان مما قاله الوزير ، في تلك الامسية التكريمية :

« ذلك لبنان الشاعر ، وليس فوزي عطوي الذي نقرا في ملامحه وشمائله قصيدة لبنانية مرصودة الاوزان والقوافي ، غير طائر ذهبي الحنجرة ، يعزف اناشيده على وتر فريد ، في موكب الطير المغرد عندنا ، من اعالي الجبال الجرد ، الى مخضرة الوديان ولجينية الشطآن .

سلام على فوزي يتوشح بالارز الذي احب حبا لا مزيد عليه ، حب الوطن الذي نماه ، والافق الذي اطلعه ، فيقول :

بينـي وبينك قربـى لست انكرها   قربى التآخي وقربى الفضل والحسب
قربى جدود تخلوا عن تعصبهم ،   الله والارز عندي خـير معتصب
الدين توحيد شمل ليس تفرقة ،   فكيـف تختصم الدنيا بـلا سبب
دين الهلال لنا ، دين الصليب لنا ،   ودين لبنان حب الارز والعرب !

تلك آيات فوزي ، نطق بها في ابياته ، فاستهوت فؤاد اللبناني الكبير المؤتمن على مصائر هذا الوطن ، والمؤتمن على هياكل الفكر والعبقرية في ارضه ... فيما يرعاه من نهضة العلم والادب وما يوصي به من تكريم اهل القلم ، وافراد منازل العزة لهم . فهنيئا لفوزي عطوي هذا الوسام ، وهنيئا للادب واهله تلك المنزلة في قلب لبنان ! »

بعد ذلك ، تستمر القصيدة على هذا النحو :

يا شاعر الارزة الخضراء ، ما احتدمت   للعرب حادثة في سالـف الحقب
الا وهب شباب الارز من غضب   بالسيف حينا ، وبعض الحين بالقضب!
لم يرهبوا طاغيا ، في الشعب ، مغتصبا   الحق اكبر من طاغ ومغتصب !
الرأس نحن ، ولسنا في الوغى ذنبا ،   ومن يبدل رأس القوم بالذنب ؟ !
ونحن لبنان ، لا نسلو اخوتنا ،   مهما لقينا من الاهوال والنوب ،
وللعروبة في هذي الجبال حمى ،   فسائل الضاد عن ساداتها النجب !
ان العروبة من لبنان منبعها ،   بهـا مقيم هفـا قدما لمغترب ،
وشعب لبنان لـم ينكـر عروبته   ولا تنكر للمستقبل العربي !

يا شاعر الارزة الخضراء ، صفت لها   خمسين عاما قصيدا رائع الطرب
اذا زجلت ، فما شدو اليمام سوى   رجع لشدوك في افواهه الزغب !
النبل شيمتك الغراء ، ان برزت   نيوب خصم وضيع النفس ، مضطرب ،
وان لقيت من الاخوان بعض اذى ،   وان جرحت ، فغفار بلا عتب ،
وان رضيت ، نظمت الشعر فيض رضى ،   وان غضبت ، فلا تنساق للغضب ،
وان فرحت ، مدحت الناس مبتهجا ،   وان حزنت سكبت الدمع كالسحب ،
بوركت ممتدحا ، بوركت ممتدحا ،   يا ملهما رصع الاشعار بالشهب !

وابيات مرتجلة

وفي اول آذار ١٩٦٥ ، اقيم مهرجان آخر لخليل ايوب الحتي في جمعية شبان الرحمة التي كنا وكوكبة من ادباء لبنان وشعرائه ، ننتظم في ندوتها الثقافية ، برعاية الصديقين الكبيرين المرحوم الشيخ شفيق الضاهر رئيس الجمعية ، والاستاذ جان كميد رئيس تحرير « الرحمة » و « اصداء » و « الرسالة » قبلهما .

وكانت مناسبة المهرجان بسبب نيل خليل ايوب الحتي وسام العلم والفضيلة من رتبة قومندور من المنظمة الاجتماعية السامية .

في ذلك المهرجان ، وككل احتفالات الجمعية ، كان لا بد من ان يكون الافتتاح بتلاوة فصل من الانجيل المقدس . وباصرار رائع ، واجماع اثار دموع التأثر في عيني ، طلب المحتفلون ان يقرأ المسلم الوحيد الذي كان مشاركا في المهرجان ، فصل الانجيل المقدس ، وكان ذلك المسلم الوحيد هو كاتب هذه السطور .

وكانت لي في المهرجان خطبة نثرية مرتجلة ، لكنني مهدت لها بأبيات شعرية مرتجلة هي الاخرى ، اذكر منها قولي مخاطبا خليل ايوب الحتي :

يـا بانيا للشعر مجدا   بالطيب والعطر المندى
خمسين عاما لـم تزل   فيها تعـير الخلد خلدا
تهدي الى لبنان احلى   ما الى لبنان يهدى :
زجلا ارق مـن النسيم   ومن ندي الحب اندى
خمسين عاما ، يا خليل ،   سلمت للوطن المفدى !

ملحمة لبنانية عن فلسطين

ولقد يجهل الكثيرون ان لخليل ايوب الحتي ملحمة شعرية لبنانية رائعة عن فلسطين ، يثير فيها كل ملامح التاريخ القديم ، في علاقة الصهيونيين مع غيرهم من اصحاب الديانات السماوية ، ومطامعهم التي انتهت بالاستيلاء على ارض الانبياء ، وتشريدهم لاهل البلاد واصحابها الشرعيين الذين نرجو ان تتضافر كل الجهود ، في العالم ، لكي يعودوا الى بلادهم ، فلا تضيق بهم او بسواهم حدود الارض ، ولا تتناوشهم ولا تتناوش سواهم سموم الرياح الاربع .

ولقد اساغ لي خليل ايوب الحتي ان اطلع على تلك الملحمة ، وان اجرى عليها بعض التنقيحات الضرورية ، ومن ثم ان اكتب مقدمتها ، وان اطبعها في مطابع جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت ، وكان ذلك عـام ١٩٦٧ .

آخر العهد بالخليل

وكان آخر عهدي بالخليل ، رحمه الله ، تلك الامسية الرائعة التي استدعيت اليها ، بالهاتف ، لحضور حفلة تعليق وسام الاستحقاق اللبناني على صدره ، في منزل ابن شقيقه الاستاذ سمير الحتي صاحب مدرسة العائلة اللبنانية ، وقد قام بتعليق الوسام الدكتور بطرس ديب المدير العام لرئاسة الجمهورية ، آنذاك ، ورئيس الجامعة اللبنانية حاليـا ، بحضور وزير التربية الوطنية السابق الكاتب المجيد الاستاذ ادوار حنين ، وعدد كبير من انسباء الشاعر واصدقائه ومحبيه .

اعترف الآن ان شعورا داخليا انتابني ، ليلتذاك ، بأن ذلك اللقاء بخليل ايوب الحتي قد يكون اللقاء الاخير . ولكن لقاء آخر حمل كل معاني الحزن والالم والتأثر المتبادل ، جرى بيننا هاتفيا ، بعد ان فشلت كل جهودنا في لجنة التهدئة الوطنية التي حاولنا فيها وقف العنف ، ولجم التطرف ، وعلـى الاخص في الحوادث المحلية بساحـل الشوف ، بين الدامور والناعمة وحارة الناعمة ، حيث تبادل ابناء الخؤولة والعمومة المكتسبتين ، وبدافع مـن التعصب المريض الاعمى ، تحيات لا تمت الـى تحيات اجدادهم بشيء .. تبادلوها تذائف مدفعية مدمرة ، وخطفا متبادلا ، وحربا اهلية اسقطت كل النداءات اليائسة التي صعدناها بشرف ، وامانة ، ومحبة عظيمة ، وكانت نتيجتها سقوط الدامور ، وسقوط غيرها من المدن والقرى والاحياء اللبنانيـة .

في ذلك الوقت ، اتصل بي خليل ايوب الحتي هاتفيا ، وكانت الحوادث الدامية المؤلمة قد قطعت بين المنطقتين الشرقية والغربية مـن بيروت ، كـل امكانية للاتصال الشخصي ، وحدثني عن الدامور ، واحسست ان في ثنايا كلماته دموعا على البلدة اللبنانية العريقة ، قد تكون ممتزجة بدموع اخرى ، طالما خانت صمود الرجولة فينا ، سكبناها على الوطن الصغير الذي ذبحه التآمر من كل جانب !

واذكر من ان من بين النداءات السياسية اليائسة التي وجهتها على صفحات الجرائد اللبنانية ، باسم لجنة التهدئة ، نداء قلت فيه :

« لا نستطيع قبول التفريط بقطرة واحدة من دماء اهلنا واخواننا في حارة الناعمة والناعمة والدامور ، واننا لندعوهم الى الاستجابة لنداء الاخوة التاريخية التي لن تزعزعها الاحداث الاليمة العابرة ، راجين ان تختنق الفتنة نهائيا ، وان يسلم لنا ما بقي من معالم لبنان » . (النهار ــ ٢٢ ايلول ١٩٧٥) .

والآن ، انتقـل خليل ايوب الحتي ، الشاعـر ، والصحافي ، والانسان الوطني الخلوق ، الى رحاب ربه . غاب ، ونحن تائهون خارج لبنان ، بين الفنادق ، والمطارات العربية ، فلم تيسر لنا الظروف القاسية سبيلا الى تحيته تحية الوداع الاخير .

فهـل يجيء يوم قريب يعود فيـه المهجرون الى مواطنهم ؟

هل يستجيب اللبنانيون وغير اللبنانيين الى المبادىء الوطنية السمحاء التي تعلمناها باعتزاز في مدرسة خليل ايوب الحتي ، فيستجيبوا لنداء الاخوة التاريخية ، ويخنقوا الفتنة نهائيا ، فيسلم لنا ما بقي من معالم لبنان الحبيب ؟ !

فوزي عطوي

المتنبي

تحية الى شاعر العربية الخالد (ابي الطيب المتنبي)
في مهرجانه الالفي الذي انعقد في بغداد

محمد جواد الغبان

*

هيهات يبلغ شأوك الاطراء ... ويزيد مجدك مدحة وثناء
مجد له تعنو الكواكب رفعة ... ويرف فوق ذرى الخلود لواء
طوفت في الدنيا فجاوزت المدى ... وبلغت ما لا تبلغ الشعراء
كم حاولوا ان يلحقوا بك فانثنوا ... يكبو بهم في شوطهم اعياء
فخلا لك الميدان حتى قد بدا ... وكأنه لك ما به اكفاء
أنا ذا هنا .. في المهرجان يخونني ... نطق ، ويعييني لديك أداء
غمرت بياني رهبة ومهابة ... فلقد وقفت وأحرفي خرساء

يا أيها البطل الذي شهدت له ... الخيل ثم الليل والبيداء
تتساءل الاجيال : من هذا الذي ... قد انجبته الكوفة الحمراء
من ذا الذي شغل الدنى في ذكره ... فتعطرت في ذكره الارجاء
من ذا الذي للآن من ألف ، وما ... زالت عليه تسلط الاضواء
من ذا الذي تشدو المحافل باسمه ... فتضاءلت في جنبه الاسماء
فأجابت الايام : هذا شاغل الدنيا الذي ملئت به الانحاء
هذا الذي للشعر أرسى دولة ... تنحط عن عليائها الجوزاء
هذا الذي لا تجسر الفصحاء ان ... تشدو لديه . فأفحم الفصحاء
ومسامع الدنيا لسحر بيانه ... تهفو اليه يشدها الاصغاء
مبهورة فيما أتى من معجز ... باق ، فألسنة الزمان ثناء

أأبا الروائع خالدات لم يزل ... في مسمع الدنيا لها اصداء
تذكي العزائم في النفوس ، وطالما ... في الليل يسمر عندها الندماء
لما نزل نستافها فواحة ... بالعطر ، فهي حدائق غناء
ولكم بها انتشت القلوب فهزها ... طرب ، فقل لي : هل هي الصهباء
شيدت صرحا للقوافي شامخا ... يسمو له فوق النجوم بناء
الشعر : أي رسالة قدسية ... بسواك لم يرفع لها أعباء
قد صنت منه كرامة . كم باعها ... من همه البيضاء والصفراء

يا صاحب العقل العظيم : وطالما ... ذو العقل فيه قد أحاط شقاء
وأخو الجهالة هانىء في عيشه ... فتظله في عيشه النعماء
يكفي طموحك مفخرا ان لم يزل ... للآن فيه تضارب الآراء
المغريات .. وحسب نفسك رفعة ... ان لم يحط مقامها الاغراء
هل كنت تبغي المال ؟ لا . حاشاك ان ... تبغيه . تأبى الهمة القعساء
لو كنت تبغيه لفزت بطائل ... منه فتغمر عيشك السراء
ولكنت فيه مرفها ومنعما ... ولأينعت صحراؤك الجرداء
ما كان ذلك مبتغاك ، فكل ما ... تهفو اليه ، رفعة وعلاء
قد كان مطمحك النجوم مكانة ... وسوى النجوم تراه وهو هباء

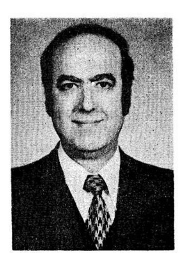
كم قد ظمئت ، وما أبل لك الصدى   وعلى سواك تساقط الانواء
ماذا ؟ أهل ترجو المنى من معشر   منهم لمثلك لا ينال رجاء
طوفت في شرق البلاد وغربها   فاذا بكل الحاكمين سواء
أشجتك أمتك العروبة ساسها   عجم ، وولي امرها الدخلاء
أشجتك ان اضحت ممزقة ، وان   راحت بها تتلاعب الاهواء
وتحكمت فيها اناس .. لم تزل   مثل الطبول بطونها جوفاء
ويرون ان الناس ملك اكفهم   فكأنما هم أعبد وإماء
ما نمت عنهم . كيف يغفو شاعر   بطل ، وملء عيونه اقذاء
فثارت للشرف المهان تصونه   من ان تكدر صفوه الفحشاء
« لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى »   حتى تراق على ذراه دماء
قد زال ملكهم وملكك خالد   باق فلا يمشي اليه فناء
ما كان (كافور) غداة قصدته   كفؤا . وأين لمثلك الاكفاء
أمدحته ؟ لا . كنت تبغي كشفه   وبأن قول الشعر فيه هراء
ورأيت فيه المضحكات ، وربما   ضحك يحز النفس ، فهو بكاء
يكفيك ان تجد المنية عنده   فيها المنى ، وبها يكون شفاء
واذا الحمام يهون عند ذوي النهى   لعرفتم : ان كيف كان الداء
شخصت ادواء النفوس ، وحسبنا   طبا ، بأن تتشخص الادواء

سل (سيف حمدان) وقد أبقت له   ذكرا روائع شعرك العصماء
ايام في (حلب) صنعت ملاحما   للشعر فيها تفخر (الشهباء)
كم من سيوف قبله او بعده   فلت ، وفيك له يظل مضاء
باق يجلجل في العوالم ذكره   ما دام منك مع الخلود بقاء
تعلي وتخفض من تشاء ، كأنما   بيديك كان الخفض والاعلاء

أ (أبا المحسد) والنوابغ عرضة   في ان تنال مقامها الدهماء
ان ناصبوك عداءهم قل لي : فما   ذا انقصت من فضلك الاعداء
فالشمس من يستطيع يحجبها .. ؟ اذا   دلت على اشراقها الاضواء
والورد من يخفي تفتحه .. ؟ اذا   نمت على نواره الاشذاء
فاذا هم لم يبصروك ، فعاذر   (ان لا تراك المقلة العمياء)
فالعين ان عميت تساوى عندها   فيما تراه النور والظلماء
ها أنت رغمهم خلدت ، فأحسنوا   من حيث قد ظنوا اليك أساءوا
ها أنت تصمد شامخا متحديا   تسمو بمجدك عزة وإباء
أيزحزحونك عن مقام راسخ ؟   أنى . وأنت الصخرة الصماء
مرت بك الارزاء عاصفة ، فما   كانت تطأطىء رأسك الارزاء
واليوم تنشرك القرون ، فتنجلي   لك في الخلود صحيفة بيضاء

(بغداد) يا أم العروبة .. طالما   فيك تجل وتكرم الابناء
ان اجدبت ارض وغاض عطاؤها   فلديك فيض دائم ، وعطاء
او تصبح الواحات قاعا صفصفا   فلأنت ــ دوما ــ واحة خضراء
في كل حين تنجبين نوابغا   ان مات غيرهم ، فهم احياء
من كل فذ من بنيك ومبدع   في مجده تتفاخر الآباء
يا مصنع العظماء : ليس ببدعة   في ان يكرم عندك العظماء
ويقام مجد (ابي المحسد) شامخا   ويرف منه على رباك لواء
وفيته حقا عليك مقدسا   يمليه نحو النابغين وفاء

بغداد ــ ص.ب ١٠٣٨   محمد جواد الغبان



الدكتور وليم الخازن

موضوعات الشعر القومي

بقلم الدكتور وليم الخازن

* * *

بعد ان تفتح العرب على المفاهيم السياسية الحديثة ، وعرفوا الاسس التي ترتكز عليها قوميات الشعوب بوجه عام ، اخذوا يتلمسون الموضوعات التي تثبت دعائم قوميتهم الخاصة ، وتغذيها ، وترسخها في النفوس على ضوء الاحداث المتفاعلة في مجتمعاتهم . وبالنظر الى ما قاساه العالم العربي من صراع ضد المؤامرات الخارجية والانقسامات الداخلية التي لظى اوارها الغربي الدخيل بمساعدة الجهل والتخلف اللذين لا يزالان كالربق في اعناق العرب . وكانت ابرز الموضوعات القومية التي تطرق اليها الشعراء في نهضتهم الحديثة : اللغة العربية ، واحياء التراث العربي ، والصراع ضد الطائفية والتعصب .

اللغة العربية الفصيحة

تعد اللغة من اهم عناصر القومية ان لم تكن اهمها على الاطلاق . فأنى نظرت في الكتب التي تتطرق للابحاث القومية رأيت اللغة تحتل المنزلة الاولى في اشكال شتى من التقرير والتعليق والتأكيد . ففي الكتاب الذي نشرته منظمة الاونسكو عام ١٩٧١ حول الحركات الوطنية الاستقلالية ، كتب الزعيم السلوفاني اتبين كريستان : « لا تشتمل الامة على مجموعة الافراد الذين يعيشون على ارض واحدة ، وانما على مجموعة الافراد الذين يتكلمون لغة الام ، ويعترفون مختارين بأنهم ينتمون الى القومية نفسها » . وفي كتاب بول هنري « مسألة القوميات » يستبعد عن القومية كل ما يعتبر غير حتمي لنشوئها كالاطار الجغرافي والجنس والدين ووحدة المصالح ويقول : « تبقى الصفة الخارجية الاكثر تأثيرا : اللغة وفكرة اعتبار اللغة عنوان القومية نفسها ليست جديدة » . ثم يضيف : « ولقد كان لاثر العنصر اللغوي دور بارز في مناقشات فرساي التي استندت الى وحدة اللغة لدى الشعوب المطالبة بكيان وطني خاص للموافقة على مطلبها . وربما كان من ابرز ما يعبر عن اثر اللغة في الانتماء القومي الحديث النبوي الوارد في تاريخ ابن عساكر ، وقد جاء فيه : « يا ايها الناس ان الرب واحد ، والاب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

ولن ندخل هنا في مناقشة من يقلل من شأن اللغة متمثلا بعدد من الدول الحديثة المتعددة اللغات كسويسرا وبلجيكا وكندا ، فان هذه الدول عملت لتتفوق على هذا النقص ، وتعدت مرحلة القومية الى مرحلة الدولة الحديثة الراسخة في العلم ، والفلسفة ، والارادة الموحدة . وان تعدد اللغات في بلد ما يكسب شعبه وجها خاصا من العالمية ، والانسانية ، والاتجاه الفكري . ولقد اثبتت الفلسفة في ايامنا اثر اللغة وطرق تعبيرها الخاصة في التفكير والتفاعل مع الحياة والوجود ، ولطالما وصفت اللغة بأنها روح الامة تستوعب افكارها ، وامانيها ، وابعادها .

تنبه العرب الى اهمية هذا العنصر في بناء القومية وحاربوا الاتجاهات التي تحاول بعث اللغات العامية ، ولعلهم على كثير من الحق والوعي في ما يذهبون اليه . وقد رأينا اللهجات الخاصة تؤثر تأثيرا فعالا في استقلال الدول التي انتثرت بعد انفراط عقد الامبراطورية الرومانية . ولما جاء المهندس الانكليزي وليم ويلكوكس الى مصر في مطلع هذا القرن ، ودعا الى الكتابة بالعامية وجعلها لغة البلاد الرسمية ، ثارت عليه نقمة المثقفين ، واشار حافظ ابراهيم الى هذه الدعوة على لسان اللغة العربية عام ١٩٠٣ :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوادي في ربيع حياتي

وكأن في واد اللغة اضعافا للاماني القومية ، ودكا للاسس التي تقوم عليها قوة الشعوب ومجدها ، ولا وحدة بغيرها . وقد قال حافظ في هذا المعنى :

ارى لرجال الغرب عزا ومنعة وكم عز اقوام بعز لغات

ونجد مثل هذا المعنى في قصيدة بموضوع « اللغة العربية والشرق » للشاعر مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ — ١٩٣٧) اذ يقول :

اذا اللغات ازدهت يوما فقد ضمنت للعرب اي فخار بينهـا الكتب

ووعي الاتحاديون الاتراك اثـر التعبير في كيـان الشعوب ، فحاولوا التشكيك باللغة العربية ونشر التركية علـى حسابها . فانبرى لهم المفكرون والشعراء العرب يسفهون اقوالهم ، ويدحضونها ، ويدافعون عن لغتهم ، واصفين جمالها ، وسحرها ، وبيانها الذي نزل به القرآن ، كلام الله . واعجب العرب بلغتهم ايما اعجاب ، وكانت لهم فيها المصنفات الكثيرة في تحليل مواضع الجمال بحروفها ، وصيغها ، وتركيبها ، وفنون تعبيرها ، حتى كادت الابحاث اللغوية تلهيهم عن تطور الموضوعات وتنويعها . انها لغة الضاد الفريدة وأم اللغات ، حتى راح بعضهم يناجي اللغة مناجاة عاطفية صوفية كما فعل انيس المقدسي في نشيد نظمه لاحدى الجمعيات العربية عام ١٩٠٦ وقال فيه :

لغة العرب اذكرينا   واذكري مـا فـات
كيـف ننساك وفينا   نفحـــة الحيـــاة

ونرى اثر اللغة في بعض المهاجرين الذين حرصوا على المحافظة عليها وتعليمها لاولادهم . ولم يأتوا بدعا في هذا الشأن ، فنحن نعلم في بلادنا ، مثلا ، كيف تحافظ الاقليات الغربية التي اتخذت جنسيتنا على لغاتها الام محافظة منها على كيانها وتراثها . اما الذين نسوا لغتهم واهملوها ، فقد كان غيابهم اظهر في المجتمعات الجديدة التي انتقلوا اليها . وقـد ساعدت غلبة اللغة العربية في بعض البلاد الافريقية على انصهار الشعوب التي كانت تتكلمها بالمجتمع العربي ، كما حدث عند حلول العربية محل القبطية في مصر ، والبربرية في شمال افريقيا ، والزنجية في السودان . واولاد المغتربين العرب واحفادهم الذين جهلوا لغة الام كان غيابهم اقوى واعمق في الامم الغربية التي حضنتهم . وقد تنبهت الدول العربية الى هذه الظاهرة ، وخاصة لبنان ، فراحت تستعمل التنظيمات المختلفة لمعالجتها والمحافظة على الطابع العربي في نفوس ابنائها المهاجرين . اما شعراء المهجر فقد كان لهم بعض الفضل في محاولتهم صيانة اللغة العربية واظهار دورها القومي . ويحتم علينا الواقع المجاهرة بأن هذه اللغة قد ضعفت شيئا فشيئا في المهجر مع الايام ، وانخفض معها الادب الذي ينبعث عنها ، مما دعا المغتربين الى تنبيه الدول العربية الى هذا الامر الخطير . وآخر نداء ، على ما نعلم ، وجهه الشاعر السوري الياس قنصل (١٩١٤ —) من الارجنتين الى الحكومات العربية يبلغها فيه ان « الادب العربي المغترب في حالة احتضار » مبينا بعض الاسباب ، ومقترحا بعض الحلول لمعالجة هـذا الوضع السيىء .

احياء التراث العربي

ان الالتفات الى التاريخ الماضي ، والتراث التليد ، من الموضوعات التي تستأثر باهتمام الشعوب في انتفاضاتها القومية . والعودة الى التراث تثير الشعور برسوخ الجذور التي تجمع الشعب وتوحد خصائصه على مدى العصور بحيث يشعر ان اتجاهه القومي الحديث امر طبيعي تنبه اليه بعد غفلة ، وانه مؤتمن بالوقت نفسه على ضمان تراث الجدود الذين ناضلوا في سبيل ترسيخ كيان الامة ، وانماء ملامحها الذاتية . ولعل هـذا الموضوع القومي اكثـر موضوعات القوميـة التصاقا بالنفوس ، وتغلغـلا في لاشعورها . فهو شبيه بما تحدثه الذكرى من عودة الى التجربة الاولى .

ولقد قال سوراتو في كتابه حول الفكرة القومية : « في الابعاد الاولى لاسس مبدأ القوميات ومنابعه النفسية ، تبرز ، في نظر بعضهم ، الذكرى » . انها ذكرى الماضي ، وما يثيره في النفس من تحفز جديد في الطريق القومي . ونرى المعنى نفسه عند يوسف ابراهيم يزبك (١٩٠١ —) في قوله : ان الشعور العربي هو تحسس الانسان العربي لكينونته ، وابتعاثه ذكرياتها ، في خاطره على الاقل .

ولم يشذ العرب في هذا الاتجاه ، بل ان نهضتهم الادبية والفكرية الحديثة التفتت الى الماضي البعيد تستوحيه القيم ، والمعاني ، وطرق التعبير . وزاد بريق التراث العربي في نفوس العرب ، واشتد دابهم على بعثه بعد ان طالت هجعتهم في ظل الحكم العثماني الخانق ، فقويت ردة فعلهم في هذا المجال ، وتوسعت الآفاق التي ضربوا فيها . وربما كان ابراهيم باشا من اول الذين لفتوا العرب الى احياء مجدهم التديم ، وذلك في نداءاته للشعب العربي في سورية وفلسطين خلال ولايته عليهما .

ورأى بعض الشعراء ان يستعرضوا تاريخ العرب منذ عهد النبي العربي حتى ايامهم ، كما فعل الشاعر المصري احمد محرم (١٨٧٧ — ١٩٤٥) في « الالياذة الاسلامية » التي يصور فيهـا بطولة الرسول واصحابه في غزواتهم وجهادهم في سبيل الدين . والشاعر العراقي محمد حبيب العبيدي (١٨٨٠ — ١٩٦٣) في قصيدته « الواح الحقائق » التي انشدها في المنتدى الادبي العربي بالآستانة ، بعيد الحرب الطرابلسية عام ١٩١١ ، فلام فيها الشرق العربي على تقاعسه ، وحثه على تجديد مجده الماضي . وجرى هذا المجرى مواطنه الشاعر خيري الهنداوي (— ١٩٥٧) في قصيدته « ايها الشرق » و « فتاة سلانيك » . وعاد بعض الادباء الى العصر الجاهلي ، فحمل عـز ابطاله وفروسيتهم ، ونقلها رافدا لاماني العرب في بعث قوميتهم . وسارت على الالسن امجاد عهود سالفة ، واسماء اسر عربية رفعت الجباه وملأت النفوس اعتزازا وفخرا ، كذكر آل حفص في وصف مصيف « المرسى » التونسي على لسان الشاعر التونسي علي النيفر (١٩٠١ —) حيث يقول :

تخيرها قدما ملـوك غطارف   فخارهم باق مدى الدهر مائل
فمن آل حفص كل اروع باسل   سجيته حـزم وعـزم ونائـل

وشارك المغرب العربي عامة في هذا الموضوع داعيا الجيل الجديد الى بعث المآثر الماضية على لسان شعراء من امثال محمد غريط (١٨٨٠ —) ومحمد المختار السوسي (١٩٠١ —) ، ومحمد المهدي (١٩٠٤) . ولقد تعرض لموضوع احياء التراث العربي انيس المقدسي في كتابه : « التيارات الادبية في العالم العربي الحديث » تعرضا وافيا ، وحدد موضوعاته في ذكرى النوابغ الابطال ، وذكر المأثور من وقائع العرب واخبارهم في المشرق والمغرب ، وتفوقهم ، وذكرى امصارهم وحضارتهم ، ومثل على هذه الموضوعات من شعر احمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢) ، ومحمد عبد المطلب (١٨٧٠ — ١٩٣١) ، وحافظ ابراهيم (١٨٧٢ — ١٩٣٢) ، وعبد الحليم المصري (١٨٨٧ — ١٩٢٢) ، وخير الدين الزركلي (١٨٩٣ — ١٩٧٦) وعمر ابو ريشة (١٩١٠ —) ، وغيرهم . وعالجت الموضوع نفسه عزيزة مريدن في كتابها : « القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي » . وجملة الشعراء الذين مثلت بأقوالهم هم من اللبنانيين .

ويجدر بنا ان نشير الى بعض المزالق التي قد يكون الشعب العربي انزلق اليها في اطالة وقوفه عند امجاده الماضية في مرحلة كانت تتطلب منه مزيدا من الجهاد لتغيير اوضاعه والتخلص من براثن المستعمر الذي يضيق عليه الخناق ، وخاصة ان التراث العربي نفسه حافل بالمواقف الخطابية الرنانة التي ترتكز على ظاهر اللغة ، وموسيقاها ، وبيانها ، اكثر منها على حقيقة التوجيه والالتزام . وانما التغني بالامجاد الماضية واحياؤها هما لبلورة الشخصية ، ولكن الاكتفاء بهما وحدهما وسيلة مضمونة للانتحار القومي . وهذا التحفظ ، في كل حال ، لا ينفي اهمية تذكير العربي بما صنعه رواد حضارته وقوميته ، ليكون لـه بهم خير هداية ، واكبر برهان على ما يقدر عليه اذا اخلص القصد ، والتزم به .

الصراع ضد الطائفية والتعصب

وتصدى الشعر القومي للتمزق الطائفي وما ينجم عنه من تخلف ، وما يثيره من احقاد . وقام المفكرون والمصلحون والادباء يحاولون كسر هذا الطوق المحكم ، وتحرير النفوس مما رسب فيها من افكار لا تمت الى حقيقة الدين بصلة . ولم تكن مهمة العقلانيين سهلة ، اذ كثيرا ما كانوا يصيحون في واد كما جاء على لسان الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (١٨٢٥ — ١٩٠٢) ، فالشعب الجاهل ليس تربة صالحة لجميل الغرس . وظهر في مطلع القرن الحالي بمصر جماعة من المفكرين تأثروا بأبحاث الغرب ونشروا آراءهم في الصحف والمجلات ، فتأثر بها الشباب الطالع تأثرا بالغا . ومن اشهرهم شبلي الشميل (١٨٦٠ — ١٩١٧) ، وفرح انطون (١٨٧٤ — ١٩٢٢) ، وسلامة موسى الذي ناهض الدعوات الوطنية المرتكزة على الطائفية . ومن ابرز مواقف الساسة العرب النابهين في نبذ الطائفية وصهرها في القومية العربية موقف الملك فيصل الاول (١٨٨٣ — ١٩٣٣) واقواله : « الدين لله والوطن للجميع — نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » .

واكثر الشعراء العرب نظموا في هـذا الموضوع ، فدعوا مواطنيهم الى الوحدة الوطنية التي تتعدى اختلاف المذاهب ، كما فعل معروف الرصافي (١٨٧٥ — ١٩٤٥) . وحاربوا بعض رجال الدين عندما وجدوهم يشذون عن تأدية رسالتهم الحقيقية التي تجمع بين الناس ، فحرموا المحلل ، واباحوا المحرم ، وفقا لعصبيتهم واهوائهم ، كما رأينا عند الشاعر المصري علـي الغاياتي (١٨٨٥ — ١٩٥٦) في قصيدته المنظومة عام ١٩٠٧ ومطلعها :

يا ويل من عبدوا القبور واشركوا بـالله بـين توسـل وتضـرع

ورأى فيهم الشاعر العراقي محمد رضا الشبيبي ، عام ١٩٢٠ ، عناصر تفرقة وشقاء ، وذكرهم في معرض كلام على تقسيم البلاد العربية على يد الاجنبي :

جارت علينـا عصبة روحيـة شقيت بهـا الارواح والاجساد

وفي الفترة نفسها نعت خير الدين الزركلي ادعياء الدين « بحاملي علم الشقاق » الذين كبلوا الشرق بالاصفاد ، وحالوا بينه وبين التقدم :

يـا حاملي علم الشقاق بـه لا تحملـوا للشـرق اصفـده
لا تبعثوهـا فتنـة عمـا تـؤذي كنيستـه ومسجـده

وجاهر الشاعر المسيحي الياس قنصل (١٩١٤ —) بجرأة وتحد بأنه شخصيا مستعد لان يتخلى عن دينه اذا وقف هذا الدين عائقا في سبيل تحرر وطنه . وجاراه عدد من الشعراء .

ونهج بعض الشعراء طريقة حذقة متفائلة تفوت على المستعمر والوصولي استغلاله للطائفية في تفرقـة افراد الشعب الواحد ، بحيث اظهروا الطائفية بمظهر الفارق السطحي الذي يزول في الملمات ، وتتغلب عليه الوحدة الوطنية ، والتعاون بين الاخوان . ونرى هذا الموقف مثلا عند الشاعر السوري خليل مردم (١٨٩٥ — ١٩٥٩) ، حيث يقول :

الحمد لله اني في حمى وطن تحمي كنائسه فيـه مساجده

وقد اوضح هذا الشاعر ان التعصب هوى شخصي ليس من الدين في شيء ، بل انه معدى الى الخلاف والانقسام الذي يجرف كل القيم البشرية .

والاقوال التي تبين مساوىء التعصب ، وتحارب الطائفية ، كثيرة في الشعر العربي القومي ومن الطبيعي ان نرى اكثرها لشعراء لبنانيين لكثرة الطوائف في موطنهم ، ولكثرة ما قاساه لبنان من هذه الآفة الاجتماعية البشعة .

وليم الخازن

قد حاولت ، ولكن بطريقة عصرية ، ان افرج همومي . وكنت دائما اعجب للخليفة هارون الرشيد الذي كان رجال حاشيته يجدون من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، تفريج همومه بما يعرضونه عليه من حلول : « قم ، يا امير المؤمنين ، وانظر الى السماء كيف تتألق نجومها وتدور في اعجب نظام ، اخرج الى الحدائق الغناء الممتدة على جانبي دجلة ، تمتع بأريج الزهر وجماله ، وحلاوة الفاكهة وما تدخله على النفس من انتعاش ونشاط ، استعرض خيولك العربية الرائعة في اسطبلاتك الفنية واختر الجواد الذي تشاء واخترق به بغداد العظيمة و و ... » .

اما انا ، المواطن العربي في اواخر القرن العشرين ، فلا املك مثل هذا الترف — فكيف افرج الهموم التي ترزح فوق صدري ، وتؤرقني ، وتحيل الدنيا في عيني ظلاما فوقه ظلمات ؟ ومع ذلك قررت ان احاول ، وحاولت ...

غادرت منزلي باكرا . اول مشهد وقعت عليه عيناي حشد من المواطنين يتزاحمون على باب فرن — لم يكونوا يقفون في نظام كامل ، لكن في شبه نظام ، يعرف كل منهم ان دوره يجيء بعد دور الذي يتقدمه — اما اذا تسلل واحد او اثنان او اكثر ، او لوح عملاق او متعملق بيده من فوق الرؤوس وخاطب الفران بقوله : « يا ابو صطيف ، الله يرضى عليك ، كيلوين لاخيك ابو احمد » ، ونجح المتسللون والمتوسلون بالحصول على طلبهم قبل اصحاب الدور الآخرين ، فهذا لا يثير سوى تذمر مهموس ، او نفخة من اعماق الصدر ترافقها عبارة مثل : « لا حول ولا ... » او « استغفر الله العلي العظيم ... » واذا تشاجع احدهم وصرخ : « بالدور ام بالزور ، يا جماعة ! » ، فانه لا يلبث ان يتلقى الاجابة من الفران او اجيره : « شو اخي ! .. مو عاجبك ؟ اذا مو عاجبك مع السلامة ! » — فيصمت المحتج ومن كان ينوي الاحتجاج لانه لا بد من الحصول على الخبز بأي ثمن ...

واترك الفرن واتابع سيري وقد زادت همومي زيادة محسوسة — واقف امام مكتبة — الازدحام هنا ليس من اجل شراء الكتب ، ولكن من اجل قراءة العناوين التي ابرزها صاحب المكتبة في براعة واضحة ، كتب من كل البلاد ، مؤلفة او مترجمة ، والعناوين كلها تخاطب المراهقين سنا او نفسية ، والمارة يقرأون العناوين ويتأثرون بمضمونها ، وقلة قليلة منهم



بقلم سعيد ابو الحسن

تشتري بعض المطبوعات وتذهب لتفرج همومها او لتزيدها ... واشتري صحيفة يومية وادخل حديقة عامة قريبة وابدأ مطالعتها على مقعد خشبي اصفر اللون ، لا بأس بنظافته .

وابدأ — كعادتي — بالصفحتين الاولى والاخيرة . على الاولى اطالع اهم العناوين السياسية ، وعلى الاخيرة اهم الاحداث العلمية والثقافية ، ومختلف الطرائف المأخوذة



— ولا شك — عن الصحف الاخرى . ثم انتقل الى الصفحات الداخلية : فأغرق في خضم من المقالات المترجمة، واكثرها عن المسرح العالمي ، والفن العصري او المعاصر ، وعن المسلسلات التلفزيونية ، والافلام السينمائية ، وبعض المقالات المؤلفة ، واكثرها صيغ على عجل ، ما ان يقراها الانسان حتى يلفظ قسما منها كالقشور والنوى ، ويتحمل من الباقي بعض عسر الهضم وحتى المغص .

واغادر الحديقة وقد تنفست هواء نقيا — وهذا مفيد — ولكنني لم ابدد شيئا من همومي ، بل العكس هو الصحيح . ويخطر ببالي ان ازور صديقا لي ، وهو موظف كبير في احدى الادارات الحكومية .

ويستقبلني صديقي مرحبا . واجلس الى مكتبه لاتيح له البقاء وراء هذا المكتب ، وقلت له : تابع عملك ، وحدثني حين تستطيع ، فأنا لم آت لاعطلك عن العمل .

فأجابني :

لا عليك ! انا ما صدقت انك جئتني ، فأنا بحاجة الى بعض الراحة ، وانا بحاجة ، على وجه الخصوص ، الى بثك بعض شجوني .

— هات ما عندك ، فقد يصح هنا قول القائل : « وداوني بالتي كانت هي الداء » .

وانطلق صديقي على سجيته . وانا مصغ اليه في مشاركة كاملة .

— انظر الى هذا البريد المتراكم امامي . هل تصدق ان تسعة اعشار هذه المعاملات ، ما كانت لتصل الي لو كلف كل موظف مرت به نفسه عناء دراستها ، ووضع الحل ، او اقتراح الحل المناسب لها ؟ . خذ هذه مثلا : طلب توظيف مقدم من مواطن يحمل الشهادة الثانوية العامة . الجواب عليه سهل : لا تعيين بلا مسابقة . ولكن الموظفين المرؤوسين لا يجرؤون

على اعطاء الطالب الجواب الحاسم : فهم يحسبون الف حساب : ربما كان هذا المواطن احد معارف المسؤول الاول في الادارة ، او كان موصى به من شخص ما او جهة ما . والمسؤول الاول لا يعدم وسيلة لايجاد طريقة استثنائية لتلبية طلبات المعارف ، وتنفيذ توصيات الاصدقاء .

وهذه الثانية معاملة صرف قيمة مأدبة اقامها المسؤول في احد المقاصف الكبرى لاعضاء احد الوفود . وحين انفحصها ، واعود الى التاريخ المفروض انه تاريخ المأدبة ، اجد نفسي امام فضيحة : فلم يكن في البلد اي وفد بذاك التاريخ . واستنتج ، بلا صعوبة ، ان قصة المأدبة اختراع بارع للحصول على مبلغ بطريقة تلبس مظاهر الشرعية ، وانها مجرد اختلاس مموه ، والمبلغ سيدخل جيب المسؤول او جيوب افراد حاشيته .

وهذه الثالثة ...

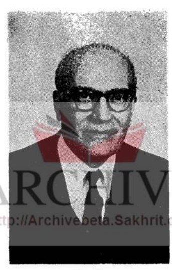
واجدني اصرخ في وجه صديقي وانا أقف كمن لدغته افعى :

— ارجو ان نكتفي بهذا ، فأعصابي لا تتحمل اكثر من ذلك .

واودع صديقي وانا ارثي لحاله ما دام يواجه كل يوم مثل هذه البشاعات ... واشعر بأنني بحاجة الى منشط فأدخل اول مقهى اصادفه ، واطلب فنجانا من القهوة مغليا مركزا متوسط السكر . وتجيء القهوة . وحين ارشف اول رشفة احس طعم اشياء محمصة كثيرة ، مازجها قليل من البن . ولكني مضطر لاحتساء الفنجان حتى الثمالة لان لا بديل ... وفيما كنت اشرب هذه المصيبة ، كانت مصيبة اخرى تصل الى اذني من راديو المقهى . كانت احدى المطربات تغنى للمدينة التي (الجبل بيها ، والنهر خيها ..) ورواد المقهى يطربون لهذا الهذر ، لانهم بحاجة الى تقطيع الوقت ، وتفريج الهموم ...

واغادر المقهى وعلى كتفي جبل اثقل من الجبل الذي ولد المدينة ، على ذمة المطربة ، واسأل نفسي : الى اين ؟ ..

وكان الجواب : « لماذا لا اقوم بزيارة احد الاقارب في بيته ؟ فهو متقاعد ولا بد ان يكون في مثل هذه الساعة في احدى جلساته المحببة » ومضيت الى بيت قريبي ، فوجدته على شرفة شقته يلعب الشطرنج مع زميل له ، متقاعد مثله . وبعد عبارات الترحيب والمجاملة ، رجوت من اللاعبين ان يتابعا لعبهما ، فأنا اسر



سعيد ابو الحسن

*

بمراقبتهما ، ولعل متابعتي هذه المعركة الذهنية ان تنسيني بعض صور الواقع . وما لبثت ان رايت زوجة قريبي تأتيني بفنجان من القهوة ، وتنظر الى زوجها في شيء من الغضب الخجول ، فشعر بحدة النظرة وادرك مغزاها . واعلن انتهاء اللعب بحجة انه يريد ان يبادلني الحديث . وتنفس الصعداء وقال :

اف لهذه الحياة — تسلمك من فراغ الى فراغ ! باللعب نحاول ان ننسى . بالعمل ننسى فعلا ، ولا نتذكر حتى نتعب ونحتاج الى الراحة — بالقراءة نحاول ان نهرب ، وهو هرب لذيذ ، لكن ما ان ننتهي من المطالعة حتى نعود الى نقطة البداية ، حاملين كثيرا من المتعة الروحية ، ولكن احساسنا يزداد رهافة فنصبح اكثر استعدادا للشعور بأخف الآلام وادقها ، فالاحتكاك بعقول المؤلفين ومشاعرهم ينبه فينا كل موجات الالتقاط ، فلا تفوتنا نغمة فرح ، ولا نأمة حزن . والنهار طويل ، والليل اطول . والوحدة موحشة ، والاختلاط اشد وحشة اكثر الاحيان .

فقال شريك قريبي في اللعب :

الا تعفينا من فلسفتك المتشائمة ؟ اضحك يا اخي ، ما دمت لا تملك ان تسير حياتك كما تشاء ، فاقبلها كما هي ، على علاتها . كن متأهبا دائما لكل ما تجيء به الحياة ، فلن يفاجئك شيء ، ولن تشعر بفرق بين حلوها ومرها ...

الكلام سهل — قال قريبي — اما الواقع فأصعب مما نظن . اننا نحاول ان نعزي انفسنا ، وتكون النتيجة ان تعزيتنا تبقى سطحية ، مفتعلة ، فنكون كمن يسلي الحمى بقشور البطيخ ، كما يقول المثل العامي .

وحسبت ان علي ان اشارك في الحوار فقلت :

في موقف كل منكما الكثير من الحقيقة ، ولستما مختلفين الا من حيث الزاوية التي ينظر منها كل منكما . فما قاله قريبي يحدث فعلا ولا يجوز انكاره — فهو بمثابة تشخيص الداء — وما قاله الصديق هو بمثابة وصف العلاج ، او على الاصح وصف طريقة الوقاية . ولو سمحتما لي لقلت : ان الداء والدواء منا وفينا . ولا اقول شيئا جديدا ، فاقرؤوا جيدا كل تراثنا الفكري ، تراث الانسانية كلها ، تجدوا هذه الحقيقة واضحة ومعبرا عنها بألف

الطير

كلما رفرف القلب يود الانفلات
طائر الفرحة ماتت وتلاشت في اللهاة
تمتمات ثم خر الطير من كل الجهات
أيها الطير المولي كيف القاك وأين
كلما لحت ببالي قتلتني الذكريات ...
احرام .. احرام ان تواصلنا قليلا
في زمان الوصل تصفو الآه ، تحلو الامنيات ..
ان بعض الصحب لاموا ، ان بعض الصحب قالوا ..
كيف تلقى طيرك المرتاع في هذي الحياة
واصطراع الدرب آنا ، واشتهاء المغريات
يا صديقا كلم الطير كلاما جاء في بعض اللغات
أيها الطير المولي .. هل لنا من رفرفات
ان في قلبي نسيما فاق كل النسمات
ان زادا منه تلقى لهو الزاد الحياة ..
انه الحب حبيبي قدسته الملهمات ..
فاض ينبوعا وثرا كان حب الكائنات
لم يجب شيئا توارى خلف اكوام الرفات
حشرجات ثم خر الطير مصعوقا ... ومات

حلب — مصطفى النجار

طريقة : لكل امر وجهان متضادان ظاهرا ، متحدان في الحقيقة ، تضادهما اتحاد ، واتحادهما تضاد . والا لما تكون منهما هذا الامر الواحد . فلماذا نضيق بالالم واللذة احد وجهيه، ولماذا انتشي باللذة والالم احد وجهيها ؟ وجهازنا الجسدي والنفسي مكون ليشعر باللذة والالم ، فاذا حاولنا ان نحذف شعورنا بأحدهما فكأنما نحاول ان نعطل هذا الجهاز . فلو فقدنا حاسة الذوق ، او الشم ، او السمع ، او الرؤية ، فاننا لا نفقد طعم الاشياء الحلوة وحدها ولا طعم الاشياء المرة وحدها ، بل نفقدهما جميعا ، وكذلك الامر في بقية الحواس . لذلك ارى ان علينا ان نقبل بالحياة كما هي ، ليس من قبيل الوقاية النفعية ، بل من قبيل الفهم العميق لها حتى القبول الطوعي الكامل بالموت الذي هو الوجه الآخر لحقيقة الحياة .

ومضينا في هذا الحوار ، وتشعبت بنا دروبه . وتكشفت لنا آفاق جديدة، آفاق الحقائق وآفاق الهموم ... وحاولنا ان نجد تفسيرا لما يعاني انسان العالم الثالث في دروب الحياة الصعبة التي تشبه المتاهة . هل هذا ناتج عن حركة الحياة ذاتها وهي تتطور ، فهي لا بد ان تتخلص من جلد وهيئة ، لازماها في احدى مراحل تطورها ، لتكسو جلدا وهيئة جديدين لمرحلة جديدة ؟

ام هو ناتج عن المشاركة الواسعة، في صنع الحياة ، لجماهير غفيرة مستجدة لم تكن تشارك قبلا في عملية الحياة هذه ؟ اوصلها الى هذه المرحلة المتقدمة انتشار العلم والوعي وانكسار الجدران التي كانت تعزل الطبقات الاجتماعية بعضها عن بعض، وتحصر في واحدة منها دون سواها مهمة صنع الحياة للمجتمع كله ؟

وكان لا بد لتساؤلاتنا ان ترسو على حافة مجهول لا حدود له ، فيه كل الاجابات المحتملة ، واخطر الاجابات ، ان تكون همومنا من صنع قوة خفية ، تريد ان تلهينا بهمومنا اليومية ، عن الهم الاكبر الذي كان يجب ان نقف عليه كل مجاهيدنا ، وهو استكمال اسباب وحدتنا وبالتالي اسباب قوتنا ومنعتنا ، لننهي مهمة تحررنا ونستأنف اداء دورنا الكبير في حياة العالم ، اعني اداء رسالة العدالة ، والمساواة، وتحقيق انسانية الانسان ...

دمشق — سعيد ابو الحسن

حليم دموس

١٨٨٨ — ١٩٥٧

بقلم عجاج نويهض

*

اول ما بدات اقرا له من الشعر ، هو « اغانيه الوطنية » وذلك بعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ وخلع عبد الحميد ١٩٠٩ ، وانا طالب ١٩١٢ و ١٩١٣ في مدرسة برمانا (لبنان) . فعند انبثاق الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ كان حليم دموس اصبح من الشعراء المعدودين وله مميزاته في حسن الذائقة الادبية لا في نطاق الشعر وحده ، بل في الادب العربي جملة وتفصيلا . واغانيه الوطنية اصابت من الذيوع حظا كبيرا في لبنان ، واظن ان اغانيه هذه وسعت عليه الآفاق .

واول ما لقيته عن كثب ، وربطت بيننا عرى الصداقة الواشجة ، كان في دمشق خريف ١٩١٨ وقد امتلك العرب ، وفيصل بن الحسين على راسهم ، داخلية سوريا من معان العقبة الى شمالي حلب . ومشت هذه الصداقة كل ايام الشام الحلوة ، حتى اواخر تموز ١٩٢٠ ثم احتلت فرنسا سوريا وتغيرت دواليب التاريخ مع فيصل والعرب ، ولو ان فرنسا كان عندها ديغول سنة ١٩٢٠ بدلا من غورو في سوريا ، لربما كان العرب احسن حالا واقوم سبيلا يومذاك واليوم .

• • •

وكان حليم دموس يعمل موظفا في « سكة حديد الحجاز » في دمشق ، ولا اعلم متى بدأ عمله ، وقد يكون عمله هذا من حيث الوظيفة الرسمية اول عمل مارسه في حياته في سوريا ولبنان . ولما اسس اديب الشام الكبير الشاعر خليل مردم بك في اثناء الحكم الفيصلي في دمشق سنة ١٩١٩ جمعية « الرابطة الادبية » ، وانتظم فيها ارهاط من ادباء سوريا ولبنان والعراق وغير اقطار ، انضم حليم دموس ايضا ، وكان من البارزين ، ومن صدور هذه الجمعية التي كان لها شأن في انعاش الادب العربي بعد الحرب الاولى ، ودمشق وقتها الام الجامعة ومعقد الآمال القومية ، محمد الشريقي ، واحمد الكرمي ، وشفيق جبري ، وعبدالله النجار ، وسليم الجندي ، وابيفانوس ، وفخري البارودي ، ونجيب الريس ، وغيرهم . (راجع « الموسوعة الموجزة » للاستاذ حسان بدر الدين الكاتب ص ٢٤٤ من المجلد الثاني) . ولا بأس ان اوضح مجمل صلتي به الآن : اما في دمشق فكانت مليئة ، وكأسها المعنوي دهاقا ، نلتقي في الاسبوع مرة او اكثر ، ونجلس للحديث في الادب والسياسة والشعر والاجتماع ، ومد الرؤية الى ابعد مدى ، اذ كانت دمشق في خلال تلك المدة الذهبية الاحلام ، حتى في اليقظة ، تجتاز مرحلة ٢٢ شهرا راقصا صاخبا ، ثائرا فائرا ، وفيصل وصحبه والامة كلها يهزجون بالاناشيد الوطنية المستثيرة للشعور في سبيل احياء الدولة العربية الكبرى ، فكانت المدارس والمعاهد قائمة قاعدة ، والاناشيد القومية يستمع اليها حتى طيور الغوطة في وكناتها ، و « المؤتمر السوري » او البركان من شيوخ الشباب وشباب الشيوخ يصارعون ما زرعته بريطانيا والصهيونية وفرنسا في الطريق من اشواك وعثرات .

في سنة ١٩٢٠ ساقتني الاقدار من دمشق الى فلسطين مودعا اصحابي في العاصمة الاموية وفي مقدمتهم حليم دموس . وهو بقي في عمله في سكة حديد الحجاز مدة ثم انتهى عمله وبقيت البرد تروح وتغدو بيننا . ثم صرت اراه في بيروت يعمل في الصحافة ولكني ما عدت اجتمعت به الا اوائل سنة ١٩٣٢ في بيروت بضع ساعات لا اكثر ، اذ كنت رافقت وقتئذ الزعيم الهندي مولانا شوكت علي من فلسطين الى بيروت ودمشق ، اثر انعقاد المؤتمر الاسلامي العالمي في القدس وكانت مرافقتي لمولانا شوكت علي اولا لانه هو صديقي منذ ١٩٢٦ في مكة المكرمة ، وثانيا كنت مكلفا من الحاج محمد امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ورئيس المؤتمر رحمه الله ، ان ارافق مولانا شوكت علي لاترجم له في بيروت ودمشق خطبه في الحفلات العامة التي تقام له في تلك الرحلة ، وكان رياض الصلح وقتها من مرتبي برامجها ، والفرنسيون حانقون في سرهم غير مرتاحين الى رحلة الزعيم الهندي بحال .

ولكن الوقت القليل الذي انفقته مع الصديق حليم دموس في بيروت كان ممتعا . ولم يكن بعد قد حام حول حمى الداهشية . وفي سنة ١٩٤٣ وانا اتولى القسم العربي من دار الاذاعة الفلسطينية في القدس ، جاء حليم فلسطين زائرا ، فدعوته لالقاء مختارات من شعره من المذياع العربي ففعل مسرورا ، وتكلمنا مليا ودخلت الداهشية في العباب . ثم زار بيت المقدس في السنة التالية ١٩٤٤ وكنت قد استقلت من عملي في دار الاذاعة قبل بضعة اشهر ، فكانت كل احاديثه لي عن الداهشية وهو وقتئذ مستغرق فيها وهي شاغلته عن كل شيء ، سوى الشعر الروحاني . ولم اره بعد ذلك قط ، وسنة ١٩٥٧ جئت من عمان الى دمشق ، وكان في نيتي ان اسعى اليه اينما كان لالقاه ، وفي ثاني يوم وانا في دمشق قرأت نبأ وفاته والتحاقه بالرفيق الاعلى في لبنان . رحمه الله ، واكرم مقامه في فراديس الجنان .

وكل ما استطيع ان اكتبه الآن عن هذا الصديق

الراحل قبل عشرين سنة ، فأقدم جوانب من سيرته الى القراء الكرام ، في عالم الضاد ، عن طريق مجلة « الاديب » الحبيبة ، هو اشياء مختلفة باقة من هنا وباقة من هناك لا اكثر . واصدقاء حليم دموس كثر ، وان كان معظمهم ينتمي الى الجيل الذي اخذ يواجه ايام الشيخوخة ، ولكن منهم من لا يزال في ريان الشباب ، المربي القومي الاستاذ ماجد مهدي صاحب المعهد التعليمي الوطني في « علي النهري » قرب المعلقة في البقاع ، فانه نشر في جريدة « السفير » (تشرين الاول ١٩٧٧) يدعو الناس الا ينسوا حليم دموس ، فسيرته حرية بالحفظ . ولكني لست طامحا الآن في ان اتمكن من وضع سيرة كاملة لهذا الشاعر الغالي علي عهده ، والمرعية عندي مدى الحياة صداقته ، ولا سيما ما يتعلق بكيفية انتقاله الى الداهشية . فاقتصر على ما عندي من خبرة ، وربما غيرنا اولى منا واجدر بوضع السيرة الكاملة لحليم . والفضلاء اصدقاؤه اكثرهم في البلاد ولله الحمد .

ولد حليم دموس في زحلة (عروس البقاع) سنة ١٨٨٨ وتلقى دراساته وعلومه في « الكلية الشرقية » في زحلة . ومعرفة تاريخ ميلاده على وجه اليقين امر سهل ، فقد ذكر هو في آخر ديوانه الاول المسمى « ديوان حليم » ، وسنتكلم عنه عما قريب ، ما يلي : « انا اليوم واقف — ٢٠ تشرين الاول ١٩١٥ — على باب السابعة والعشرين من عمري ، لا هم لي الا التعرف بعلماء العصر ، ومجالستهم ومذاكرتهم ومباحثتهم ، ومطالعة كتب العلوم والآداب للاستزادة من هذه البضاعة الثمينة » . وقال في هذا الوطن ايضا : « ولي نزعة خاصة الى الشعر وقد نظمته في العاشرة من العمر قبل ان اتعلم اصوله وادرسه على استاذي الكبيرين جرجس همام وعيسى اسكندر المعلوف في الكلية الشرقية في وطني زحلة » . وقال ايضا : « وقد صرحت مرارا ان لوالدي الفضل الوافر في تنبيه خاطري الى الشعر وصرف طبعي اليه . فقد طالما اسمعني ، وانا دون العاشرة ، مقطعات واناشيد لطيفة نظمها على نغم « المعنى » ، هو فن الزجل المشهور في سورية ولبنان ، وقد نظم كثيرا في هذا الفن وهو في ابان الشباب ومقتبل العمر لان مدارس ذلك العهد لم تؤهله لدرس اصول اللغة » .

وفي الصفحات الاربع الاخيرة من « ديوان حليم » تكلم عن كيفية نظمه الشعر ، وخلاصة ما قاله ان للظلام فضلا عليه لا ينساه : « فمتى شئت نظم قصيدة عمدت الى قلم رصاص وعدة ورقات بيضاء اضعها تحت وسادتي عند ذهابي الى النوم ، فاذا ساد السكون في غرفتي وتوافدت علي المعاني ، واطاعتني القوافي فأختار منها ما اريد وابعد ما اريد » .

عاش حليم دموس على الاقل عشرين سنة من حياته في العهد التركي العثماني الذي انقلب في اواخره الى العهد التركي الطوراني . وحليم في السابعة عشرة (او ١٩٠٥) هاجر الى البرازيل ، اذ الهجرة وقتئذ كانت قوية الرواج في لبنان ، ومكث هناك بضع سنين اذ نراه قد عاد الى عشه المحبوب زحلة سنة ١٩٠٨ ولكن لا علم لدينا ، اقبل اعلان الدستور رجع في تموز من تلك السنة ام بعيده ، وبقي في لبنان بقية حياته . ويلوح ان الغاية المادية من هجرته لم تنجح نجاحا يذكر بدليل قصر مدتها كهجرة فرح انطون وخليل السكاكيني الى اميركا في ذلك الوقت وعودتهما بعد برهة ما الى مصر وفلسطين . فحياة دموس ليست كثيرة الرحلة والسياحة لا في العالم الاكبر بل حتى في العالم العربي . واشك في انه زار مصر او العراق او حتى كل سوريا . وكانت وفاته بعد تسع سنين على انهيار فلسطين ، ولكنه شهد كل المعارك في منازلة الصهيونية والسياسة البريطانية في تهويد فلسطين ، فلما زار القدس لآخر مرة سنة ١٩٤٤ كانت فلسطين في المقلى الى ١٩٤٨ .

يمكننا ان نرى حياته قد اجتازت هذه المراحل :

الاولى : مرحلة شبابه الاول الى ان هاجر الى البرازيل سنة ١٩٠٥ وهو في السابعة عشرة .

الثانية : المرحلة المهجرية في البرازيل وهي عدة سنين وتمتد الى ١٩٠٩ ثم عاد الى زحلة في تلك السنة .

الثالثة : مرحلة ازدهاره الاول في الشعر ، بعد عودته من المهجر وامتد هذا الى الحرب العامة ثم الى ١٩١٨ فنراه في دمشق من المهللين للاماني العربية ، وظهر هذا في بعض شعره في دمشق .

الرابعة : مرحلة حياته الشعرية وانتاجه ونشاطه الاجتماعي وامتد هذا نحو ١٥ سنة اي الى ١٩٣٥ وفي هذا الاوان بدأ يتأثر بالدكتور داهش مذ انتقل الاخير من فلسطين الى لبنان . ونحن نضع تاريخ انتقال الدكتور داهش الى لبنان في حدود ١٩٣٥ .

الخامسة : مرحلة العقيدة الروحانية الداهشية ، وهذه الى آخر حياته ١٩٥٧ . ولكننا لا نتعرض هنا لبحث شيء يتعلق بالداهشية في لبنان . واني اذكر جيدا اني لما كنت اجتمع به في القدس ١٩٤٤ كان روحيا محضا وممارساته الروحية كانت بواسطة الشعر .

لا املك اليوم شيئا من دواوين دموس وكتبه وآثاره ، سوى نسخة من ديوانه الاول « ديوان حليم » ، ولكن الطبعة الاولى لهذا الديوان ليست هي من طبع مطبعة « دار الايتام السورية » في القدس سنة ١٩٢٠ ، كما جاء في كتاب « مصادر الدراسة الادبية » لداغر ، بل الطبعة الاولى من « ديوان حليم » اخرجتها (مطبعة ديوان الشورى الحربي بدمشق ١٩١٩) . ولما كنت لا املك نسخة ما من طبعة القدس ، فكل ما اذكره في هذا الفصل عن « ديوان

حليم » ، انما يعود الى طبعة دمشق ١٩١٩ .

وعلينا الآن ان نستوفي الكلام عن « ديوان حليم » هذا . فالديوان يقع في ٣٦٠ صفحة من الحجم الوسط والورق عادي جدا (لا يؤمل ان يكون الورق الجيد متوفرا للكتب الخاصة والبلاد خارجة من الحرب) ويقسم الى قسمين فالاول وسماه « من منظومات الوطن » يتضمن المقدمات البهيجة وشعر دموس الى ١٩٠٨ في ٨٦ صفحة ، والقسم الثاني وهـو الاهم يتضمن شعر دموس مـن ١٩٠٩ ــ ١٩٢٠ وسمى هذا القسم « منظومات الوطن » ، وهذا يشغل معظم الديوان . واهدى هذا الديوان ببيت شعر في العربية والفرنسية :

الى كـل نفس حـرة وابية وشاعرة اهدي عرائس افكاري

وابدع حليم في نوع المقدمات الفنية اتى بها على وجه فريد ، فالاولى « اقوال الافرنج والعرب » في تعريف الشعر والشاعر فبدأ بالاقوال العربية القديمة والحديثة . ثم بعد ذلك ٦ صفحات وهي آراء شعرية في الشعر ، ثم بعد ذلك ٩ صفحات تتضمن آراء الامم في الشعر ، من فرنسية ، وانكليزية ، ولاتينيـة رومانية ، وبرازيليـة بورتغالية ، ويونانية واسبانية وروسية والمانية وتركية . ثم الكوكب الاكبر للمقدمات ، وهو مقالة « الشعر والشعراء » مأخوذة من مقالات عصرية لنحو ٧٥ شاعرا وكاتبا وكاتبة واديبا واديبة ، وكلهم من البارزين ، والاقتباس الذي اقتبسه دموس من اولئك السادة والسيدات هو انه اخذ عبارة من المقالة ، او فقرة ، والف من مجموع هذه العبارات والفقرات مقالة « الشعر والشعراء » ذلك بأن سبك معاني المقتبسات جميعها في سلك يجاور بعضه بعضا بحيث تنقلب المقالة ، وهـي في ٢٤ صفحة كأنها منصبة مـن قريحة كاتب واحد .

واحسب انه لا بأس ان نورد هنا على سبيل عرض المثال الفقرة الاولى وهي في الديوان تسعة اسطر :

« ما هو الشعر ؟ لا يحد بكلمة ولا يحد بألف (الدكتور نقولا فياض) فهـو كالحسن لا يوقف عند حد (معروف الرصافي) بل هو لغة القلوب وترجمان العواطف ، يختلف باختلاف الزمـان والمكان ، ويرتقي بارتقـاء الشعوب (احمد تقي الدين) يحرك قلب الشجاع العنيد فيجعله رحيما سموحا ولينا صفوحا ، وتستنفر به عاطفة الجبان فيصير شجاعا قاسيا ومحاربا جافيا (رفيق العظم) وهو كلام تؤدى بـه المعاني بتخيلات تؤثر في النفس تأثيرات مختلفة من ترغيب وترهيب ، وايقاد غضب وايقاظ من غفلة ، واثارة شجاعة الى غـير ذلك مـن الانفعالات (ابراهيم الحوراني) وهو من اعلى طبقات الكلام وابعدها غاية لما يقتضيه من شرف الالفاظ ونباهة المعاني وسلامة الذوق والمبالغة في التنقيح والتهذيب (جرجي زيدان) » .

ولا نعلم شاعرا او اديبا آخر في العربية اتى بمثل هذا السلك الجديد النوع من حبات عقود تجاورت فتآخت فكان منها هذا المقال النفيس ، تقراه فتحسبه لاديب ما وهو لخمسة وسبعين اديبا ، كل اديب له سهم فيه . كان الشعراء في القـرن الماضي اذا تعالوا وتباهوا في فنون الشعر ، اتوا بأبيات على حساب الجمال يتضمن تاريخا . ونرى عمل حليم دموس هنا ابداعا ، فانه بهذه الطريقة المبتكرة ، سبق وغبر ، وجدد وغير . ومن اولئك الادباء والشعراء ، نحو عشرة تكرر الاقتباس منهم من مرة الى عشر مرات .

ومدة الحرب العالمية الاولى الجائحة ، وقد شهدها دموس وذاق مآسيها في لبنان ، لم ألمح في ديوانه هذا انه عني بوصف اشياء من ويلات تلك الحرب وكروبها الا القليل كظهور الجراد سنة ١٩١٥ . وفي شعره مقطعات كثيرة قالها شعرا في مناسبات تهنئة او تعزية وكل هذا في ٣٣ صفحة . وبعد ١٩٠٩ يغزر شعره . وممن ظهرت رسومهم في الديوان ، استاذاه جرجي همام وعيسى المعلوف .

كتاب « الرحلة الانورية الـى الاصقاع الحجازية والشامية » يتضمن وصف رحلة انور باشا وزير الحربية الى الشام وفلسطين والحجاز سنة ١٩١٦ ومن ذلـك القصائد التـي قالها شعراء الشام ولبنان في استقباله ومدحه ، ومؤلف هذا الكتاب علامة العرب الاستاذ محمد كرد علي صاحب « المقتبس » وبعد ١٩١٩ صار رئيس المجمع العلمي في دمشق .

ومن يدقق النظر في دراسة قضايا عديدة تتعلـق بأشخاص كانت لهم صلة بأنور باشا وجمال باشا السفاح في خلال تلك الحرب ، يجد ان ظروف الحرب قضت بأن تقول الالسنة ما لم تأذن به القلوب وكل ذلك من قبيل المصانعة للترك ، وسيرة السفاح في سوريا ولبنان معروفة . من ذلك تأليف هذا الكتاب ومنه قصائد لعدد لا يقل عن ٢٥ شاعرا عربيا في سوريا ولبنان . ومن جملة تلك القصائد واحدة « لحليم ابراهيم دموس » . ولا اعتقد ان شاعرا او خطيبا قال ما قال ، الا من قبيل المداراة .

ولدموس قصيدة عنوانها في « سجن عاليه » تضمنها الديوان ، ولا يذكر سببا لمبيته ليلة في « سجن عاليه » حيث كان الشهداء يهيأون للاعواد . ونرجح ان وشاية من وغد رمي بها دموس ، فلما انجلت الحقيقة اطلق سراحه . وله قصيدة يحيي بها فيصلا بن الحسين بعيد احتلال الشام وهو في طريقه الى حلب لاول زيارة . ومن الذين لهم مراث في الديوان : الدكتور شبلي شميل ، وجرجي زيـدان ، وابراهيم الحوراني ، ويوسف بردويل ، ومحمد ابو عز الدين والشيخ اسكندر العازار وغيرهم .

ومن جميل القصائد في الديوان ، نظم قصيدة لطاغور شاعر الهند ولهذه قصة : لما نال طاغور جائزة الآداب العالمية سنة ١٩١٤ طارت شهرته في المشرقين والمغربين ، وصارت الصحف العالمية تنشر من شعره الساحر ولا سيما شعره للاطفال الذي يفوق بـه شعر الشاعر كبلنـغ البريطاني . مـن ذلك ان جريدة فرنسية نشرت قصيدة لطاغور تتضمن حوارا بين الطفل وامه ، فترجمت جريدة « فلسطين » في يافا هذه القصيدة من الفرنسية الى العربية نثرا واقترحت على الشعراء العرب ردها الى شعر عربي ، فالبس دموس تلك الترجمة النثرية حلة من الشعر السلس الناعم ، فجاء بها من وراء الغاية حقا .

كيف استطاع دموس اخراج هذا الديوان في دمشق سنة ١٩١٩ ؟ انـه وضع خطة محكمة جند بها اريحيات الاصدقاء في الوطن والمهجر ، وفتح باب الاشتراك فجمع نحو الفي مشترك ، واهم من ساهم في ذلك ، بطريركية الروم الارثوذكس في دمشق ، وكان حليم صديقا للبطريرك غريغوريوس حداد الرابع ، اذ لـما زار البطريرك زحلة سنة ١٩١١ واقيمت له الاستقبالات والاحتفالات ، القى حليم بين يديه قصيدة عصماء غراء ، هي في الديوان مع رسم البطريرك .

ولننتقل الى مناخ اخرى :

في حدود السنة ١٩٣٠ قبيلها وبعيدها ، صار يتردد على فلسطين طبيب نفساني يتعاطى التنويم المغناطيسي اسمه الدكتور سلمون ولا اذكر عن شخصه غير هذا ، ولعله كان اول من وفد على فلسطين بهذا الفن المدهش المحير للالباب ولكن بعد قليل ظهر الدكتور داهش وجعل يتفنن بفنه وهو التنويم المغناطيسي وربما زاد على سلمون . والدكتور داهش على مـا اعلم فلسطيني المقام ، وربما المنشأ كله ، وهو من بيت لحم وجوارها . لا اعلم تفاصيل حياته وانما صرت اعرفه من الحكاية التي ارويها الآن . منـذ ايلول ١٩٣٢ اصدرت مجلتي الاسبوعية السياسية الادبية وهي « العرب » ولها مطبعتها . وكان فيها باب للفكاهة الوطنية السياسية وعنوان هذا الباب « برلمان بورتاتيف » اتناول به من يشذ عـن طريق القضية ، ولا تسمى الاشخاص المقصودة بأسمائها بـل بصفاتهـا ، والجمهور يعرف هؤلاء ويعرف الجالس من الاعوج . ولان هذا « البرلمان البورتاتيفي » فكاهي الاسلوب فقد كثـر قراؤه ولا ينشر الا على صفحتي الغلاف من الداخل . فجاءني الدكتور داهش مرة وطلب ان انشر له في المجلة مقالا حول التنويم المغناطيسي ، فاعتذرت اليـه اذ المجلة سياسية لا تبحث في غيرها خدمة لقضية البلاد . وحدث بعيد ذلك اني انا في حديث « البرلمان » ادخلت داهشا يحضر بعض ارواح اولئك المعوجين ويسأل الارواح عن مسائل وطنية . كل هذا تشهيرا بضعاف النفوس .

فأتاني الدكتور داهش بعد ان قرا ذلك الحديث وقال لي : هيه !! رايتك تستعين بالتنويم المغناطيسي وبي فهل تنشر لـي الآن مقالا في « العرب » ، فأوضحت لـه ان « برلمان بورتاتيف » للفكاهة السياسية وما رضيت ان انشر له شيئا . ثـم جاءني بعد حين وانا في مكتبي في المجلة وكاشفني بأمر ، وهو ان اسمح له بأن يستعمل تلفوني الذي على طاولتي ، وعلى مسمع منـي ومشهد ، ينوم بالتلفون الآنسة التي في بيته ، وبعد ان تمسي منومة ، يسلمني التلفون فأحادثها بنفسي واستمع الى اجوبتها . وكان بيته لا يبعد عن محل ادارة « العرب » اكثر من ٢٠٠ متر . فسلمته التلفون وطلب الآنسة ماري وقال لها انه موجود عند فلان في ادارة « العرب » وانه سيطلب منها تلفونيا ان تتحدث معي وهي منومة ثم امرها بأن تنام وبعد لحظات ، سلمني التلفون وقال لي سلها ما تريد فجعلت اسألها عـن اشياء في المكتب اراها او اضع يدي عليها اسألها ما نوع الكتاب الذي امامي ، وكانت كل اجاباتها صحيحة فرددت التلفون الى الدكتور داهش وشكرته ، ولكن مع هذا ما وافقت على نشر المقال . لعل هذا سنة ١٩٣٣ وانما ذكرته هنا لاقول اني لما اجتمعت بحليم لآخر مرة سنة ١٩٤٤ في القدس قصدت ان احدثه بهذه القصة فلما استوعبها قال هذا لم يخرج عن فن التنويم كله ، اما روحانية داهش في بيروت فشيء آخر بالمرة .

كان حليم سنة ١٩٤٤ في القدس قـد تعرف بأحمد حلمي (باشا) مدير بنك الامة العربية في فلسطين ، وبعد ١٩٤٨ رئيس حكومة عموم فلسطين في غزة (ت ١٩٦٣ رحمه الله) وربط بينهما لا الداهشية بل الشعر : فحلمي (باشا) يقول الشعر الحكمي الاجتماعي ولكن لا للنشر . وحليم عنده الشعر الروحاني ، ويظهر ان كلا منهما اطلع الآخر على طائفة من شعره . وسمعت احمد حلمي بعدئذ يثني على شعر حليم ثناء واسعا ، وحليم صار ذا ثروة من الشعر الروحاني الاسلامي ، فلعل هذا ما ربط بين الاثنين .

كتب حليم دموس وآثاره المطبوعة والمخطوطة

يقول الاستاذ ماجد مهدي ان ايمان حليم بالداهشية كان سنة ١٩٤٢(١) . ونعلق على هذا اننا اذا اعتبرنا هذا هو الواقع ، فعلينا ان نميز في انتاج حليم شعرا ونثرا بين جميع انتاجه حتى ١٩٤٢ الخالي من الروحانية الداهشية وانتاجه بعد ١٩٤٢ الى آخر حياته وهي مدة ١٧ سنة . وفي اخريات حياته استغرقته الروحانية الداهشية المحض واستولت على تيارات تفكيره .

اما آثاره المطبوعة فقد وردت في « مصادر الدراسة

(١) وبعـد ان اكتمل تحول حليم الـى الداهشية صار يقول : « كنت ماديا محضا فاصبحت روحيا محضا » .

عين الخريف

من يلوم الخريف ان هو اغفى ... بين زهر يزهو بدر نداه
وأظلته من هجير وريقات ... ففنى وند عنه رضاه
نعمة العمر ان يلاقي خريف ... عطف ورد ، جل الذي أنشاه
ينسج البرد من صنيع يديه ... ويواسي جروح من يرعاه
فاذا الكون ضاحك السن في ... عيني خريف يدعو لمن واساه
أقبلت في مثل اقبال دهري ... كندى الفجر او صبح يوم جديد
أرجعتني الى زمان تولى ... اغنياتي في ليله من نشيدي
كنت كالبلبل الذي هجر ... الاعشاش وغنى على غصنه الاملود
انني اليوم يا طبيبة روحي ... اتحدى الصبا ، فأنت رصيدي
ان للحب نشوة ايقظتني ... وهي اشهى من ابنة .....
ليت يا ساعة اللقاء تسيفين ... لقاء ، ان طال يخضر عودي
زوديني ، يا اطهر الناس نفسا ... بحديث عذب شهي سديد
ودعي العين بالصبا تتحلى ... أنا كهل أضناه نأي الوليد
كلما عب ناظري من محياك ... تشهى دوامه كالخلود
بت اخشى عليك نسمة صبح ... ومساء ، وعين كل حسود
يا منى العمر ، يا أثمن ما ... فيه من فجره الى منتهاه
أنا لولاك ما عرفت ... رحيق الحنان من مجتناه
من محياك هل نور طريقي ... فاستوى الخطو ، بارقا من سناه
فأريحي الذي تبقى من العمر ... وهاتي الرضى يعد لصباه
وأعيدي علي أحلى حديث ... عبقري أصبو الى رياه

القاهرة ... احمد عبد المجيد

الادبية » لداغر وهي « ديوان حليم » وقد تكلمنا عنه هنا ما فيه الكفاية . وقاموس العوام . والمثلث والمثاني . وفي سبيل التاج . والاغاني الوطنية . ويقظة الروح او ترانيم حليم .

اما في آثاره المخطوطة فتختلف في مصادر « الدراسة الادبية » عن الذي في رسالة الاستاذ ماجد مهدي . ففي « مصادر الدراسة الادبية » ، هي :

الشجاعة الادبية . الشعر المنثور والنثر المنظوم . حكم شاعرين . اطوار وعادات . الى اولادنا .

والذي جاء في رسالة الاستاذ ماجد مهدي هو :

رباعيات وتأملات . كيف آمنت بالروحانية . الى اولادنا . من وحي الروح . نزوات قلب . الوقائع الداهشية الملحمة الالهية .

ويلمح القارىء انه لم يزل غامضا علينا ان نعلم على وجه اليقين ما هي آثار حليم المطبوعة والمخطوطة فيا ليت تنبري هيئة من اهل الفضل والادب تتطوع لتخليد ذكرى حليم دموس فتجمع كل آثاره مطبوعها ومخطوطها وتنقي ذلك كله وتصفيه ، وتنسقه تنسيقا يجعل المتشابه يضم بعضه الى بعض ، واذا ارتبط قديم بحديث — الى سنة ١٩٤٢ — كذلك يجمع في بابه . ويفصل بين انتاجه قبل اعتقاده الروحي الجديد ، وانتاجه بعد ذلك الاعتقاد . هذا على امل ان تطبع هذه الآثار كلها في مجلد او مجلدين ، وكذلك يصنع في شعره(٢) .

رأس المتن — لبنان ... عجاج نويهض

رحم الله حليم ابراهيم دموس .

---

(٢) اما عمل حليم دموس في الصحافة فاول ما عمل في جريدة « المهذب » المشهورة في زحلة ، ويظهر انه كان يتركها ثم يعود اليها . ويؤخذ من كتاب « مصادر الدراسة الادبية » لداغر ان حليما اصدر جريدة « الايام » في بيروت وهي سياسية ادبية اسبوعية فعاشت ثلاث سنوات . وفي سنة ١٩٣٥ انضم الى جريدة « الاتحاد اللبناني » يتولى فيها صفحة ادبية ، قيمة منخولة . وعمل مدة في « الكلية العلمانية » يعلم العربية . وفي الواقع ان معرفة التواريخ المضبوطة لمختلف اعماله من صحافية وتعليمية يحتاج الى دراسة اوفر مما هو متيسر الآن . واما دماثة خلقه وبشاشة وجهه ووداعة محياه كل ذلك فيه مركوز في شمائله ، خلقة وفطرة.



زكي قنصل

في الشـــعـــر

بقلم زكي قنصل

* * *

تكاثرت الآراء وتعددت مذاهب القول في تعريـــف الشعر وتحديد رسالة الشاعر ، ولكني اعتقد ان الجدل لم ينته الى نتيجة حاسمة بعد ، والنظريات لم تستقر على وجه معلوم . ذلك ان الشعر كالمراة يستعصي على الافهام ، ويشمس على المقاييس البشرية . وكلما ازداد المرء فيه امعانا ازداد غموضا وتوارى خلف الف حجاب وحجاب .

ومع ذلك فلو سئلت ان ادلي برأيي ، لما ترددت في القول ــ وانا اعلم اني لن آتي بجديد ــ ان الشعر هو مـــا يعبر عن خلجات النفس ويستنطق هواجس الضمير ويغوص الى اعماق الوجدان بلغة خالية من الشوائب ، واداء سليم يحسن اختيار الالفاظ ، واسلوب اصيل لا تعقيد فيه ولا ابهام ، الا ما يقتضيه ترف الفن وشرف البيان .

واذا اردنا ان نختصر قلنا ان الشعر هو المعنى النبيل في اللفظ الجميل كالطائر لا ينهض الا بجناحين . ولن ازعم ان القوالب العروضية رجس من عمل الشيطان فلا يمكن للشعر ان يستغني عن الوزن والقافية ، ومن الجناية ان نشعل فيهما النار بحجة ان الموسيقى الداخلية اسطورة لا تثبت للامتحان ، وفي يقيني انها على طريق الافلاس ان لم تكن قد افلست وانتهى امرها .

وقد رأينا ان كثيرين مـــن الذين ثاروا على قواعد الخليل ودعوا الى الخروج على سنن الشعر وقوانينه قد عادوا آخر الامر الى ظل هذه المناهج وغسلوا ايديهم مما كانوا يصنعون .

والحفاظ على مقومات الشعر لا يمنع مـــن تنويع القوافي والتنقل بين الاوزان ، ولكن على ان تراعى شروط الذوق السليم ويواءم بين الانغام وتربط الخيوط بلباقة . ولشعراء المهجر في هذا المجال اختراعات طريفة تقر بها العيون جرى على نهجها شعراء الوطن العربي ، ولعل ايليا ابو ماضي اذكى الرواد في تصريف القوافي والتلاعب بالاوزان .

صحيح ان الشعر شعر سواء انتمى الى هذه المدرسة او الى تلك ، وسواء جاء في الزي الحديث او الزي القديم ، ولكن هـــل يجوز ان نستنفد طاقات القارىء في الطلاسم والاحاجي ثم نزعم اننا نكتب للعامة ؟ الشعر لا يعيش في الكهوف المظلمة بل هو في حاجة الى النور والهواء ، وانا افهم ان يتبرقع بنقاب شفاف فذلك اوقع في النفس وانبه للذهن ، ولكني ضـــد « قبعات الاخفاء » وضد اساليب المشعوذين في استخراج الارانب من الاكمام .

واذا صح ان قليلا من ... يفرح قلب الانسان ، فان كثيرها يجعله موضع الهزء ويورده موارد الهلكة .

الغموض مستقبح اذن حـــين يكون مرادفا للتعمية ومقصودا لذاته ، وما اصدق من قال لو كان الغموض شعرا لكان الصمت اعلى مراتب الشعر .

ويخطىء من يسوم الشاعر ان يتقيد بالظروف الطارئة او يفرض عليه مواضيع معينة ويلبسه مسوح الواعظين والمصلحين ، فالشعر ليس بوقا للدعاية والتهريج او عربة تشدها خيول الاعراف والتقاليد ، او اداة لحل مشاكل السياسة والاجتماع والاقتصاد ، بل هو طفل غرير يبني النفوس فيما هو يبني بيوت الرمل على الشاطىء ، ويرود آفاق الفكر فيما هو يرسل طياراته الورقية في الفضاء .

انه نفحة تهب من القلب ونور يتدفق من الوجدان

(●) مقدمة ديوان الوان والحان الذي يصدر للشاعر قريبا .

يضيء مسالك القلب والوجدان . انه رسالة روحية لا ترتبط بحواجز الزمان والمكان ، والشاعر الحق هو الذي يصدر عن ذات نفسه ويجري مع سجيته ويسمو بروحه وخياله عن ترهات التراب ، وسفاسف القيود والحدود .

ولا يعني ذلك ان عليه ان ينفصم عن هموم مجتمعه ويتحلل من واجباته القومية والانسانية ، ولكني ارى ان الالتزام بأية فكرة او قضية يجب ان ينبع من اعماق نفس الشاعر وينسجم مع رأيه وذوقه ومعتقده ، لا ان يأتيه قسرا من الخارج ، فالاجادة لا تتوفر الا على قدر ايمان المرء بالدور الذي يؤديه او الرسالة التي يحملها . وفي تاريخ الادب شواهد لا يحصرها العد على ان الحرية هي المناخ الطبيعي للشعر فهو لا يتنفس الا برئة سليمة . وليس من يجهل ان ما يسمى بأدب الانحطاط لم يفرخ الا في الاجواء المخنوقة . وهذه النظرة لا تقتصر على الشعر السياسي بل هي تنسحب على سائر فنون الشعر واغراضه .

بلى ، ليس مفروضا في الشعر ان يرتبط بمبادىء الفضيلة والاخلاق — وان كنت شخصيا من دعاة هذه المبادىء — فقد كان ابو نواس امام الفاسقين والمتهتكين ، ومع ذلك فهو شاعر عصره ونابغة زمانه ، وكان « كبلنغ » شاعر الاستعمار البريطاني ، والاستعمار — كما هو معلوم — عدو الفضيلة والاخلاق ، وظل « كبلنغ » من اعلام الشعر العالمي .

ومع العلم اني احب الادب القومي فأنا اعتقد ان الشعر غير مطالب بأن يشايع الحركات القومية سواء كانت على حق او على باطل فان الشعراء الشعوبيين — كما نوهنا — يملأون تاريخ الادب ولم يخطر لاحد ان يطردهم من ملكوت الشعر .

ان الف شاعر وشاعر جلسوا على مائدة فلسطين يأكلون ويشربون ثم قاموا يضربون بسيفها ، بينهم عشرات وعشرات من قلب فلسطين بالذات ، ولكن كم هو عدد الذين نظموا فيها شعرا ؟ .. لن اتورط في احصاء الذين سقطوا في الامتحان فذلك امر يطول ، ولكني سأعد الذين نجحوا . واذا كان النقد — او معظمه — قد صفق للقافلة او وقف يتفرج بصمت ووجوم ، فاما لانه يرى ان طبيعة الموضوع تشفع بالمساوىء وتعلو على ما سواها من الاعتبارات الفنية ، واما لانه يتهيب الموقف ويخشى عواقب الصراحة . وهو في كلا الحالين قد خرج على وظيفته ، واساء الى الادب ، واسهم في افساد الذوق الشعري العام ، وهيأ الجو لهذه الفوضى الادبية التي ضاعت فيها المعالم واختلطت المفاهيم .

صفوة القول ان الشعر نشأ في الاصل للمتعة ، — بدليل ان الغناء لازمه منذ الازل وسوف يظل زفيقه الى الابد — ثم طرات عليه عوامل سياسية واجتماعية اضافت اليه عنصر الفائدة ، وقد يستطيع ان يستغني عنه متى اراد ، ولكنه ابدا لن يستغني عن وظيفته الاساسية . ومن قدر له ان يجمع بين هذه وتلك ويزاوج بين الغاية والواسطة كان فضله مزدوجا وضم المجد من طرفيه .

هكذا افهم الشعر حرا من كل قيد ترابي ، نظيفا من كل درن وراثي ، افهمه قيثارة مختلفة الاوتار ، متعددة الاصوات ، تتماوج بألحان السماء واهازيج الحياة ، يبكي اذا تألم ، ويضحك اذا فرح ، ويهدر اذا غضب ، ولا يرتبط بعجلة انسان او فكرة الا اذا كان هذا الارتباط من وحي عاطفة وبدافع خالص من شعور وايمان .

وقد يبدو هذا الراي غريبا للذين تتبعوا نتاجي الشعري ورأوني اتفاعل مع احداث الوطن العربي واتلاحم مع تطلعاته ، ولكن لا مدعاة للغرابة فأنا لا اريد لغيري ما اكره لنفسي ، وليس اشد علي واضنى لقلبي من ان احمل على النظم في موضوع لا اومن به ، ولا اذكر اني قلت بيتا واحدا عن رهبة او رغبة او مسايرة ، واذا بدا شيء من التناقض الفكري في شعري فمرده الى ان ظروفا خاصة تطرأ احيانا على بعض المفاهيم فتنقلها من حال الى حال او على بعض الوجوه فتتغير في الملامح وتعبث بالسمات .

المهم في نظري ان يتحرك الشعر في اطار من الحرية والاصالة لا يشعر به وجل او خجل . ومتى اعرب الشاعر عن ذات نفسه باخلاص وصدق وامانة ، فقد احسن التعبير عن خواطر مجتمعه وخوالجه ، لان الشاعر هو البشرية مختصرة .

بوانس ايرس — الارجنتين

زكي قنصل



محمد العدناني

عثرات الادباء

بقلم محمد العدناني

* * *

برطم

ويخطئون من يستعمل الفعل (برطم) ومشتقاته ، الذي يعني قطب (بتضعيف الطاء) ، او انتفخ غضبا ، او تكبر ، لان العامة تقول : برطم فلان ، وفلان مبرطم . والحقيقة هي ان هذا الفعل فصيح كما يقول الليث بن سعد ، وتهذيب الالفاظ لابن السكيت (في باب الغضب، والحدة، والعداوة) ، والصحاح ، والمحكم ، والحريري (في المقامة التبريزية) ، والنهاية الذي قال : في حديث مجاهد « في قوله تعالى (وانتم سامدون) قال : هي البرطمة » اي الانتفاخ من الغضب . ورجل مبرطم : متكبر . وقيل مقطب متغضب .

وكما يقول اللسان ، الذي استشهد بقول الشاعر :

مبرطم برطمة الغضبان ... بشفة ليست على اسنان

والقاموس ، والتاج ، ومحيط المحيط ، ودوزي ، فأقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

ومن معاني برطم :

(١) برطم الليل : اسود (مجاز) ، عن الاصمعي .

(٢) برطم فلانا : غاظه (لازم متعد) .

(٣) البراطم (بضم الباء) والبراطم (بكسر الباء) : الضخم الشفة .

(٤) البرطمة : ضخامة الشفة ، والانتفاخ غضبا ، وعبوس الوجه .

(٥) البرطم : العيي اللسان .

(٦) تبرطم الرجل : تغضب من كلام .

(٧) جاء مبرنطما : متغضبا .

(٨) برطم الرجل : ادلى شفتيه من الغضب .

البرغش

ويخطئون من يطلق على البعوض اللساع اسم البرغش ، لان الصحاح ، والمختار واللسان ، والمصباح ، والمد لم تذكرها .

ولكن :

ذكر البرغش كل من ابن فارس ، والدميري في « كتاب حياة الحيوان الكبرى » الذي استشهد ببيتين للحافظ ابي الحسن المقدسي :

ثلاث بلينا بها ... البق والبرغوث والبرغش

ثلاثة اوحش ما في الورى ... يا ليت شعري ايها اوحش

وذكر البرغش ايضا : القاموس ، والتاج الذي استشهد بقول الشاعر :

لقد لقينا بالبلاد شرا ... وبرغشا يلسع لسعا مرا

ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وواحدة البرغش : برغشة .

وجاء في اللسان : ابرغش (بسكون الباء فثلاث فتحات مع تضعيف الشين) : قام من مرضه .

الجمة المركبة ، الشعر المصطنع ، الجمة المصنوعة لا الباروكة

ويطلقون على الشعر المستعار للرأس الاسم الفرنسي المعرب (الباروكة Perruque) . والصواب هو : الجمة (بضم فتضعيف) المركبة . جاء في كتاب الاغاني ، في كلامه عن عبيد بن سريج ، المغني المشهور ، انه « صلع فصار يلبس جمة مركبة » (بتضعيف الكاف المفتوحة) . وجاء في الهامش : الجمة : مجتمع شعر الرأس ، والمراد انه كان يلبس شعرا مصطنعا .

وجاء في النهاية : « كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) جمة جعدة » . الجمة من شعر الرأس : ما سقط على المنكبين .

عسى ان توافق مجامعنا على استعمال (الجمة المركبة) ، او (الشعر المصطنع) ، او (الجمة المصنوعة) كما جاء في الذخيرة العلمية .

ومما جاء في الوسيط :

(أ) الجمة من الانسان : مجتمع شعرنا صيته .

(ب) ما ترامى من شعر الراس على المنكبين .

وتجمع الجمة على : جمم (بضم ففتح) وجمام (بكسر الجيم) .

برم شاربيه

ويخطئون من يقول : برم فلان شاربيه ، ويقولون ان كلمة (برم) عامية ، ويرون ان الصواب هو : فتل شاربيه . والحقيقة هي ان كلا الفعلين برم وفتل فصيح .

ومعظم اللغة العامية فصيح ، او له صلة بالفصحى من قريب او بعيد .

وانا ارى ان نقبل على استعمال الكلمات الفصيحة التي تستعملها العامة اكثر من اقبالنا على استعمال مترادفاتها الفصيحة ، التي لم تتسرب في اللغة العامية ، لكي نجذب العامة الى الفصحى ، بدلا من ان تجذب العامية الفصحى اليها .

أبره ، برهن

ويخطئون من يقول : برهن رشاد على انه شجاع ، ويقولون ان الصواب هو : أبره (بفتح فسكون) رشاد انه شجاع .

والحقيقة هي ان كلا الفعلين ابره وبرهن صحيحان ، ومعناهما : اتى بالبرهان . فممن ذكر الفعل (أبره) : ابن الاعرابي ، والاساس ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وذكر ابن الاعرابي والمصباح ان الفعل (أبره) هو الفعل الصحيح .

وممن ذكر الفعل (برهن) : الليث بن سعد ، والتهذيب ، والحريري في المقامة الاسكندرانية ، والاساس ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، ودوزي ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وقال بعض هؤلاء ان الفعل (برهن) مولد : الليث بن سعد ، والتهذيب ، والاساس ، واللسان ، والمصباح ، والتاج ، والمتن .

وهنالك من اكتفى بذكر البرهان ، كقوله تعالى في الآية ١١١ من سورة البقرة : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) . وقد ذكرت كلمة (برهان) سبع مرات اخرى في القرآن الكريم .

وممن ذكر (البرهان) ايضا ، واهمل ذكر الفعل (برهن) : معجم الفاظ القرآن الكريم ، ومفردات الراغب الاصفهاني ، والنهاية .

الاطار لا البرواز

جاء في معجم « الرائد » ، الذي صدر في بيروت عام ١٩٦٤ ، ذكر كلمة البرواز . والصواب هو : الاطار ، لان كلمة (برواز) عامية من اصل فارسي ، كما قال الامير مصطفى الشهابي ، في الجزء الحادي عشر من «البحوث والمحاضرات» الذي اصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، عن الدورة الرابعة والثلاثين (١٩٦٧ — ١٩٦٨) ، في الصفحة ٦٨ .

ويبدو ان صاحب الرائد نقلها عن محيط المحيط ، الذي قال : « البرواز : ما يحيط بالشيء فيمسكه او يحسنه كبرواز الصورة والمرآة (فارسي) » .

ولم ار كلمة (البرواز) في المعجمات الكثيرة التي في متناول يدي الا في :

(١) المتن الذي قال انها دخيلة .

وخيل الي ان اقرب الموارد ، الذي يكاد يكون نسخة ثانية عن محيط المحيط ، لا بد له من ذكر (البرواز) ، ولكنني لم اجده فيه ، ولا في ذيله وفائت ذيله .

(٢) اما الوسيط فقال ايضا ان الكلمة من الدخيل ، وعربيتها : اطار .

وكان ابن الاثير قد ذكر في النهاية :

(أ) وفي حديث عمر بن عبد العزيز : « يقص (بضم ففتح) الشارب حتى يبدو الاطار » . يعني حرف الشفة الاعلى ، الذي يحول بين منابت الشعر والشفة . وكل شيء أحاط بشيء فهو اطار له .

(ب) ومنه صفة شعر علي « انما كان له اطار » . اي شعر محيط براسه ووسطه اصلع .

فلان خبير بالعرف السياسي لا البروتوكول

ويطلقون على الذي يلم بأصول تصرفات الحكام والسياسيين الرسمية اسم الخبير بالبروتوكول .

انت والقصائد

وحينما أسمع جدول القصائد
من ثغرك المنقوش بالسوسن
والازهار والكروم
أحس يا عزيزتي كأنما يسقط من
ثغرك عنقود النجوم
فتابعي قراءة القصائد
قراءة القصائد .

وجدة ــ المغرب

محمد علي الرباوي

والصواب هو : الخبير بالعرف السياسي ، كما يرى محمود تيمور ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في الجزء الثالث عشر من مجلة المجمع .

وانا أؤيد رأيه ، لان البروتوكول كلمة اغريقية ، نحن في غنى عنها ، ما دامت ضادنا الغنية قادرة على تزويدنا بما يحل محلها مما هو مألوف لدينا جميعا .

تجربة الطبع لا البروفا

ويقولون : انتهى فلان من تصحيح بروفات كتابه ، مستعملين الكلمة اللاتينية القديمة معربة . والصواب هو : انتهى من تصحيح تجارب طبع كتابه ، كما استعملها كثير من اعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في مجلة المجمع ، فأنقذونا بذلك من طي مئات السنين القهقرى للتفوه بكلمة اعجمية تستطيع الفصحى تزويدنا بما هو اكثر منها وضوحا والفا .

البزر قطوناء ، البزر قطونا

(بفتح الباء وكسرها وفتح القاف فيهما) بذور النبات العشبي الحولي ، من فصيلة لسان الحمل ، ينبت في الاراضي الرملية ، في مصر وبلاد حوض البحر المتوسط ، وتستعمل طبيا في حالة الامساك المستعصي ، يطلقون عليها اسم : بزر (بكسر فسكون) قطونة (بضم القاف) . والصواب :

(١) بزر (بكسر فسكون) قطونا (بفتح القاف) : مفردات ابن البيطار ، ومحيط المحيط ، وذيل اقرب الموارد ، والوسيط .

(٢) بزر قطونا او بزر قطوناء (بكسر الباء وفتح القاف فيهما) : اللسان ، والتاج ، وجاء في الجزء الثامن من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الصادر عام ١٩٥٥ ، ان مجلس المجمع ، في الدورة ١٧ المنعقدة بين ٢ تشرين الاول عام ١٩٥٠ و ٢٨ ايار عام ١٩٥١ ، في مصطلحات علم النبات ، اقر تسمية تلك البذور ب (بزر قطونا او بزر قطوناء) بفتح الباء فيهما . ثم وافق مؤتمر المجمع على تلك التسمية في دورته الثامنة عشرة ، المنعقدة بين اول تشرين الاول ١٩٥١ و ٢٤ ايار ١٩٥٢ .

وقال اللسان والتاج ان المد (بزر قطوناء) اكثر استعمالا من المقصور (بزر قطونا) .

(٣) اما الباء في (بزر قطونا) فجاء مكسورة في ذيل اقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط ، وجاء بها مفتوحة مجلس مجمع القاهرة في الدورة ١٧ ، ومؤتمره في الدورة ١٨ ، وجاء بها اللسان مكسورة ومفتوحة ، وقال ان الكسر افصح .

(٤) نجد هذه الكلمة في حرف الباء في مفردات ابن البيطار ، ومحيط المحيط ، والوسيط . ونجدها في فصل القاف في اللسان ومستدرك التاج ، وحرف القاف في ذيل اقرب الموارد ، والمتن ، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

بــــزق

ويظنون ان الفعل (بزق) عامي ، لان العامة تستعمله بمعنى (بصق) . وكلا الفعلين فصيح : الصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة ، والنهاية ، والمغرب ، والمختار ، واللسان ، والمصباح الذي قال ان (بزق) ابدال من (بصق) ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

ومما جاء في معجم مقاييس اللغة : « الباء والزاء والقاف اصل واحد ، وهو القاء الشيء ، يقال : بزق الانسان مثل بصق » .

وفعله هو : بزق (بفتح الزاي) يبزق (بضمها) بزقا (بفتح فسكون) ، وبزاقا (بضم الباء) .

ومن معاني بزق :

(أ) بزقت الشمس : بزغت .

(ب) بزق الارض : بذرها .

محمد العدناني



علي المصري

الطبيعة والغزل في شعر البحتري

بقلم علي المصري

* * *

ليس ينكر ما للبيئة والوراثة من اثر في النفس البشرية ، والبحتري له منهما اعظم معين على الشاعرية والتبريز فيها . فبيئته الطبيعية بلاد الشام ، وهي بلاد موصوفة منذ القدم بالحسن ورقة الهواء وصفاء السماء وعذوبة الماء ، فالفيحاء وحمص وحماة وحلب واللاذقية وعواصم الشام الاخرى ، تجلو مناظرها العين وتشحذ الذهن وتفسح الخيال . والشام معروفة من قديم الزمان بفضلها على شعرائها ، وانها جعلتهم اعذب الشعراء الفاظا وابدعهم خيالا ، حتى لقد كان الصاحب بن عباد يعجب بأشعار البحتري وليد الشام وربيب ديارها ، ويحرص على حفظها ، ويستملي الطارئين عليه ما يحفظونه منها ، حتى ملأ دفترا ضخما ، فكان لا يفارقه في مجلسه ولا يملأ احد منه عينه غيره ، وصار ما ضمنه هذا الدفتر على طرف لسانه وسنان قلمه يحاضر به في مخاطبته ، ويورده في مراسلاته .

وقد اجتمعت للبحتري هذه البيئة الخلابة الملهمة ، الى جانب تحدره من اصلاب عربية يعم فيها ويخول ، وتم له مع ذلك الاختلاف الى قبائل طيء الضاربين على شواطىء الفرات الى منبج ، فكان له من كل هذه الاسباب شاعرية ، موروثة ، ومكتسبة ، تم بها طبعه ، واتسع ذرعه . فبحق ما يقول عنه ابو الفرج الاصبهاني « شاعر فاضل ، فصيح ، حسن المذهب ، نقي الكلام ، مطبوع . وكان مشايخنا رحمهم الله يختمون به الشعراء » .

فمن هو البحتري ؟ ..

هو الوليد بن عبيد بن يحي الطائي بن بحتر بن عتود ، ومن هنا جاءت تسميته بالبحتري وغلبت عليه . وله كنيتان ، ابو عباده ، وابو الحسن . اما تكنيته بأبي الحسن فلأنه كان يتشيع ، وهم المكثرون من ذكر اسماء آل البيت . واما تكنيته بأبي عبادة فيلتمس له الروائيون مسوغا جديدا فيقولون : تكنى بأبي الحسن حين كان بالمدينة في الحاضرة ، ثم تكنى بأبي عبادة حين تبدى « ضرب في البادية » لكي يسبغ على فنه نوعا من المسوغات العربية المغرقة في عروبتها .

ولد البحتري بأرباض منبج سنة ٢٠٦ للهجرة ، ومنبج هذه تقع بين حلب والفرات حيث تعم الخضرة الزاهية وتخيم الظلال الوارفة ، ويرق النسيم ، وتجود الغيوم بزرقتها الصافية لتسطع في قبابها اشعة الشمس المذهبة . وكان الوليد يضرب على بطاحها وعلى امتداد شواطىء الفرات حيث تنتشر قبائل طيء الذين كان يختلف اليهم الشاعر لينشأ عربي اللهجة واللسن ، كما هو عربي الارومة والنسب .

ومنبج التي كانت منشأه ، وحلب التي كان يتردد عليها ، الصقع كله الذي كان مستراده ومذهبه ، ومراحه ومغداه ، كل ذلك كان له في نفسه منزلة كبيرة ، فلم يفتر عن ترديد ذكر هذه البلاد في شعره ، بعد ان صار الى العراق ومدح الخلفاء ونادمهم . وانك لتظفر بأسباب تعلقه بموطنه الاول الذي اختلبه وطبع كل احاسيسه بطوابعه ، وملأ عليه حياته وعمره ، في مردداته الشعرية عبر قصائد الحب والحنين والمدح والوصف وفي كل ما قال . ومرجع ذلك الى حسن الهواء وطيب الماء وفتنة الطبيعة ، وما كان له فيه من هوى يجذبه اليه ، اذ عشق علوة بنت زرعة الحلبية ، ولعلها كانت حبه الاول والاخير ، فانه لم يفتر عن ذكرها والنسيب بها في قصائده التي مدح بها المتوكل وغيره .

ـــ ثم يظهر انه كان يعيش بمنبج في عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته ، وتلك اسباب لا يعدل الوطن معها شيء . واما فتنته بجمال بلاده فيدل عليها قوله :

حنت ركابي بالعراق وشاقني في ناجر برد الشآم وزيفها

« وناجر كل شهر من شهور الصيف » .

وكذلك قوله :

ذكرتنا برد الشآم وعيشنا بين القباب البيض والهضبات

— واما ما يدل على ان الشآم مهوى فؤاده ومسكن هواه ، فقوله :

وقد حاولت ان تخد المطايا   الى حين على حلب حلول
ولو اني ملكت اليك عزمي   وصلت النص فيها بالذميل

« الوخد : السريع من الابل . النص : اقصى السير . الذميل : السيد اللين . حلول : جمع حال اي المقيمون » .

— واما ما يشير الى حبه وتعلق قلبه بعلوة الحلبية . فقولـه :

جفوت الشام مرتبعي وانسي   وعلوة خلتي وهوى فؤادي

« الخلة : الصديق للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع » .

— واما كرم محتده وعراقة مجده فنلمسه في قوله :

جدى الذي رفع الاذان بحنبج   واقام فيها قبلة الصلوات

ان حب الشاعر لمرابع صباه ، وافتتانه بطبيعة موطنه الاول ، على الرغم من تردده على مواطن كثيرة ، كان يأخذ عليه نفسه ، ويلهب خياله بألف لون ولون .

فان مدح خليفة تلامحت امام عينيه صورة مجده وقومه وعزتهم فذكرهم .

وان وصف بركة المتوكل تساحبت امام ناظريه مفاتن منبج ومباهجها ، ارسل اليها التحايا .

وان انشد صديقا تراءت لـه صداقاته في مسقط راسه ، فعززها .

وان نسب اطنب بذكر الاحبة معرجا على ديار علوة .

لقد ارانا صور بلاده ومفاتنها في كل قصيدة شدا بها ، وارانا انه كان في بلاده في ارغد عيش واكرم منزلة ، حتى لقد جعل ذلك مضرب المثل . كما في قوله لأبي نهشل مادحا شاكرا :

لا تنسين زمنا لديك مهذبا   وظلال عيش كان عندك سجسج
في نعمة اوطنتها فاقمت في   افيائها فكانني في منبج

وكثيرا ما كان يعقد لنا المقارنات بين محال اقامته وبين موطنه الحبيب مهبط الهامه ومستقر حبه . ففي قصيدته المشهورة في وصف ايوان كسرى ، يعقد مثل تلك المقارنات ، قائلا :

واشترائي العراق خطة غبن   بعد بيعي الشام بيعة وكس

اما الغزل في شعر البحتري فقد اظهر محاسنه حتى لقد ضرب المثل بغزله . ولعلنا اذا التمسنا وجه ابداعه في هذا الباب نجد ما نقوله من انه نشأ نشأة بدوية ، صفت فيها السماء واتسع الافق وسنحت الظباء ، وتراءت له فتيات الحي في خصورهن الهيف وقدودهن الميادة ، وعيونهن النجل . كما رأى في الحضر الذي تنقل فيه ، علوة الحلبية وقد شغف فؤاده حبها ، فلم ينسها بعد ذلك حتى في العراق في عاصمة تذهل مناظرها كل قلب ، وتسلب كل لب .

وكان له الى جانب هذه النشأة ، ما عرفنا من طبع فياض وسهولة تكاد تسيل . فكان من غزله ما قيد الاسماع ، وخالط النفوس ، فبكى الناس للوعته ، ورثوا لدائم عبرته ، ومتصاعد زفرته . اما هو ، فقد اشتاق والتاع ، وذكر اللقاء والوداع ، وارتاح لطيف الخيال ، وانحى باللوم على العذال ، ووصف القدود ، وأسيل الخدود . ليس له في المعنى من فضل الا انـه قرب بعيده ، وذلـل ريضه « الصعب من الدواب » . ثم صبه في قالبه السحري من اللفظ الناصع السهل ، مبدعا ما شاء في الصوغ ، مجليا بما هداه اليه الطبع ، ويأبى طبعه الا الاحسان والخلو من الشوائب .

ومن سهولة الغزل عليه وموافقته لطبعه نراه قد اكثر منه والتزمه في بدء قصائده جريا على طريقة العرب في بناء القصيد على الغزل . كما نرى ذلك في داليته التي مدح بها المتوكـل :

لي حبيب قد لج في الهجر جدا   وأعاد الصدود منه وأبدا
ذو فنون يريك في كل يوم   خلقا من جفائه مستجدا
يتأبى منعا ، وينعم اسعا   فا ، ويدنوا وصلا ، ويبعد صدا
اغتدي راضيا وقد بت غضبا   ن ، وأمسي مولى ، واصبح عبدا
وبنفسي افدي على كل حال   شادنا لو يمس بالحسن اعدى
مر بي خاليا فاطمع في الوصـ   ـل ، وعرضت بالسلام فردا
وثنى خده الي على خو   ف فقبلت جلنار ووردا
سيدي انت ! ما تعرضت ظلما   فاجازى به ، ولا خنت عهدا
رق لي من مدامع ليس ترقا   وارث لي من جوانح ليس تهدا
أتراني مستبدلا بك ما عشـ   ـت بديلا ، وواجدا منك بدا
حاش لله انت افتن ألحا   ظا ، واحلى شكلا واحسن قدا

ولرقة غزله وحسن مذهبه فيه يصعب على المتخير ان يختار منه شيئا ، لان في الاختيار اثرا للمفاضلة وليس في غزله فاضل ولا مفضول ، بل كل قطعة منه دمية فنية غنية بمحاسنها لا تزاحمها غيرها في جمالها ولا تبزها براعتها .

فلنستمع اليه حضريا في شملة اعرابي ، يتغزل على طريقة السابقين ، فيذكر الآرام ، ورمل عالج ، والغور من تهامة ، في قوله :

شغلان من عذل ومن تفنيد   ورسيس حب طارف وتليد
واما وآرام الظبا لقد نأت   بهواك آرام الظبا الغيد
طالعن غورا من تهامة واعتلى   عنهن رملا ، عالج وزرود
لما مشين بذي الاراك تشابهت   اعطاف قضبان به وقدود
في حلتي حبر وروض فالتقى   وشيان ، وشي ربا ، ووشي برود
وسفرن ، فامتلأت عيون راقها   وردان ، ورد جنى ، وورد خدود
وضحكن فاغترف الاقاصي من ندى   غض ، وسلسال الرضاب برود
ترجو مقاربة الحبيب ودونه   وخد يبرح بالمهارى القود
ومتى يساعدنا الوصال ؟ ودهرنا   يومان ، يوم ندى ، ويوم صدود

« الرسيس : الشيء الثابت . الآرام : جمع رئم وهو الظبي . الغيد : المائل العنق اللين الاعطاف . طالع المكان : دنا منه . الحبر : ضرب من برود اليمن . الوشي : زينة على الثوب . سفرن : كشفن وجوههن . الاقحوان : نبت تشبه بـه الاسنان . الرضاب : الريق . البرود : البارد . التبريح : الايلام . المهاري : جمع مهرية وهـي الناقة الكريمة . القود : جمع اقود وهو الذلول من الابل » .

ثم لننظر اليه وقد اختار الاوزان القصيرة التي توافق

خفة الغزل ونشوة الحب ثم يتلاعب بالمعاني ، فيطالب المحبوب بالرقة وفاء لذل العاشق ، ويستحلفه بالوصل بعد الهجر ، والقرب بعد البعد ، وهو لا شك عند المحب خير ما في الدنيا ، فيقول :

لم لا ترق لذل عبدك ... وخضوعه ، فتفي بوعدك
اني لأسالك القليل ... وأتقي ، من سوء ردك
واما ووصلك بعد هجرك ... واقترابك بعد بعدك
لا لمت نفسي في هواك ... ولا انحرفت لطول صدك
ولئن أسأت كما تسي ... ء ، ولما وددتك حق ودك

ولنسعد معه باللفظ الرشيق والسبك الانيق والاسلوب الخلاب يرينا وكأنه يتغزل بما لم يقله احد قبله ، وما في شعره لو فتشته الا تشبيه القد بالقضيب . والاسنان بالبرد والاقحوان . والا كون المحبوب قد استولى على الحسن وتغرد بالدلال ، وان الذرع قد ضاق بالمحبوب وان الشوق قد برح بالمحب . فصار مخرجه من الحب عسيرا ، قال :

مخلف في الذي وعد ... قيل وصلا ، فلم يجد
وهو بالحسن مستبد ... وبالدل منفرد
يتثنى على قضيب ... ويفتر عن برد
قد تطلب مخرجا ... من هواه فلم اجد
ضاق صدري بما أجن ... ن وقلبي بما وجد
وتغضب ان شكو ... ت جوى الحب والكمد

ومن اشعاره التي لا تنسى تلك التي قالها في هوى علوة فخلدها على مر العصور ، واشهرها النسيب الذي قاله في مقدمة مدحيته للمعتز بالله ، قال :

خيال يعتريني في المنام ... لسكرى اللحظ فاتنة القوام
لعلوة انها شجن لنفسي ... وبلبال لقلبي المستهام
اذا سفرت رأيت الظرف بحتا ... ونار الحسن ساطعة الضرام
تظن البرق معترضا اذا ... جلا عن ثغرها حسن ابتسام
كنور الاقحوان جلاه طل ... وسمط الدر فصل بالنظام
سلام الله كل صباح يوم ... عليك ، ومن يبلغ لي سلامي
لقد غادرت في قلبي سقاما ... بما في مقلتيك من السهام
لئن قل التواصل او تمادى ... بنا الهجران عاما بعد عام
فكم من نظرة لي من بعيد ... اليك وزورة لك في اكتتام
أأتخذ العراق هوى ودارا ... ومن أهواه من ارض الشآم

والحق ان للخيال الشعري ، والدعاوى الكاذبة او المبالغ فيها من الشعراء اصحاب الخيالات المجنحة اثرا في بعض تلك الحقائق التي احب البحتري ان يلزمنا الاعتراف بها . فليس احد يعقل ان الوليد بن عبيد كان في منبج في ارغد من عيشه بالعراق قرب نخبة من الخلفاء والامراء والمتنفذين ، وقد اقتنى المال الكثير ، المتاع الوفير ، وصار يركب في جملة من عبيده ، وقد اتخذ « قهارمة » « القيم على متاع البيت » وكتابا ، وترك لابنائه ثروة جعلتهم الى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين .

فما هو مبلغ الحقيقة في دعاوى البحتري ؟

وهل يعقل ان يكون شأن البحتري في منبج كما وصف ؟ فقد ذكر لنا الشاعر نفسه انه كان ينتقل في اسواق منبج يمدح باعة الباذنجان والبصل . فهب ان انطباعه على قول الشعر جعله يتحدر من فمه في كل مناسبة وفي كل موضوع ، ولكن الشرف وسمو المكانة كما يزعم ، كان جديرا ان يجعل موضوع شعره شيئا غير مدح الباعة . وهل يمدحهم الا من يطمع في شيء من دراهم او مما يبيعونه غالبا ؟ .

هذا قول صحيح ومقبول .

وهناك قول آخر ، وهو اذا قيس الغائب بالشاهد ، حكمنا بأن علوة الحلبية هذه ليست الا واحدة من عرائس الشعر ، لم يدع البحتري عشقها ، الا ليصبغ خياله بلون الحقيقة ، حتى يستطرفه سامعوه . ولعل صبابته بها وتمرته عليها ، كانا كصبابته بغلامه نسيم ، الذي باعه يوما ، فاشتراه ابراهيم بن الحسين بن سهل ، فأكثر البحتري من الاسف عليه ، واظهار اللهفة والحسرة على فقده ، حتى رده اليه اشفاقا عليه .

على الرغم من قبول صحة هذه الاقوال ، تبقى الحقيقة التي لا مراء فيها ، وهي ان حب الشاعر البحتري لطبيعة موطنه الاول كانت ديدنه ومغترفه الشعري الذي ينهل ويعتل منه . يجوب الآفاق ويقطع الدنيا ، وتبقى احلامه وخيالاته واشواقه وروحه معلقة في منبج ، لا تبرحها الا لتغط جناح الشوق في سواقيها ، وتغمس ريشة الحب والوجد في افيائها الوارفة . ولا يبتعد عنها الا ليزرعها اعلاما خفاقة في قصائده ومدحياته ، يقربها من قلبه وقلب سامعيه وقارئيه وممدوحيه ومن حوله .

هذا هو البحتري ، وهذه هي منبج صنوان معا لا يفترقان ، هي تلهمه الشاعرية وتلهب خياله بالاشواق ، وهو ينتف قلبه وفكره غناء حلوا على روابيها شآبيب وجد وحب فوق رياضها ومسارح ظبائها .

ان الحديث عن الشاعر وحبه وموطنه منبج واشواقه في شعره يطول ويطول ، وقبل ان نودع حديثنا عن منبج يحسن ان نذكر انها انبتت شاعرا آخر هو ابو فراس الحمداني ، وانجبت حديثا شاعرا لا يقل شاعرية عن سابقيه هو عمر ابو ريشة ، كما ويحسن ان نسجل ما قاله عنها بعض الرواة على لسان احد سكانها ، من انها «عذبة الماء ، باردة الهواء ، قليلة الادواء ، ليلها سحر كله» . مما ترتب عليه شيء كثير في حياة البحتري وطبع نتاجه بمسحة سحرية طيفية عذبة ، وغلفه بغلالة سديمية ندية تفوح رقة وعذوبة ، وتتفجر شاعرية من قرائح الشاعر ، فتتلامح ظلالها على شفاه حروف قصائده المتهادية على اتساع جزيرة العرب ، حبا وشوقا وجمالا ، وتكسي رمانها بألف غلالة شوق وعذوبة ندية .

كم انت جميلة يا بلاده ، يا بلادي ، وكم انت ملهمة يا ربوع وطني ، يا ملهمة الشعراء ويا مهبط الانبياء ، ويا مفتقة القرائح ، ويا مهد البطولات ، ويا صاحبة التشرينيات ، فسلام عليك والف الف سلام .

دمشق ... علي المصري

دائرة اللحن الغامض

*

في صيف الوحدة والزمن المتقوقع
يقطفني الصمت
تشطرني اللحظات بأسياف القلق الهمجية
وتؤرجحني عاصفة الشوق الصادي
تمتد خيوط الحزن النادر تعتقل الاحساس
يتعملق في الوجدان جنين الخوف الفاغر
فاعلق عيني شراعات نداء وحنين
فوق نوافذك الوهمية
أحلم ان تمطر أوتارك اكوانا شفافة
ورفيف ثوان ضوئية
فتلملمني ، تجتث مراعي النار
ان تبحر عيناك دوما ..
فوق شراع في فلك الاعصار
وتنمي اذرع طوفان اسطوري الابعاد
تمنح روحي مئزر برق فياض الايقاع
فأثور أحطم اسوار الصمت
وافلاك الرجفة والترحال
تمطرني برذاذ ربيع يفعمني برفيف ساحر
نستلقي طفلين على صدر الليل
في همهمة الوجد المنساب
على صدر سحابات خجلى
نتحال ايقاعا .. ايقاعا
وشعاعات محبة

آه .. يطفو اللحن الغامض
فوق مرايا الجسد الحسية
عينـــاك
أيـــن .. ؟
اسقط في قبضة حزن مشحوذ
والنبض مرافيء جرح عاصف
اهتف .. فلتأتي

كي ننفذ من دائرة الصخب العاري
ونشد الى دمنا خاصرة البحر .. اغاني الصخر
.. ونغزل من جدران المنفى انفاسا خضراء
وطحالب أزمنة ولت
نتسلل عبر شفافية الامطار
نستدفيء في عمق الشفق المتحرر
ونغوص بأرحام النجمات
بمدى اسراب شمائر عطر مسترخي النبرات
وانتشري في شرفات النبض
فليات طيفك كالغضب المتحفز
كصراخ النار بدائرة الصمت الناعم

آه ما عاد الزورق يسمع ألحانا في
ثغر شراع
صار الحب وليدا مغتربا في أخدود الموت

أعرف أني نجم مقهور
عبر الافلاك المحتدمة
فأدور دوارا بشواطيء تجهل اغنيتي
تنثر في عمقي اسرابا غرقى
ترسم في الاعراق قصيدة حب دموية
ومسافات يسكنها جرح مستيقظ

آه عيناي ضريحا
ضوء ينزف رؤيا اشرعتي
قلبي اصداف يلفظها المد
يجذبها الجزر فتساقط
اغصان الاعماق
في بئر العدم الممتدة

القاهرة

احمد عباس

شــــارل قـــرم

١٨٩٤ ـ ١٩٦٣

بقلم فوزي سابا

* * *

يقول امين الريحاني : ان لبنان وشارل قرم وحدة معنوية ، وحدة روحية لا تتجزأ . اجل ان حبه للبنان يتجسم في ارزه وجباله ، وان جبال لبنان تذوب وتستحيل نورا وبخورا في حبـــه .

وقد كان للبنان محبون في كل عهد من عهوده ، وان لم يسجل في الكتب حبهم . وقد كان له من ابنائه افراد من الصالحين ، من فضلوا الوطن على انفسهم وذهبوا ضحية تفضيلهم . واني اتخيل حب هؤلاء جميعا ، حبهم الصامت المكنون ، حبا واحدا ، حبا بارزا ناطقا في كلمات هذا الشاعر اللبناني .

ولد شارل قرم في بيروت سنة ١٨٩٤ وفيها توفي سنة ١٩٦٣ ، تلقـى دروسه في جامعة القديس يوسف بعدما فاز منها بجائزة الشرف في الادب الفرنسي ، ثـم هاجر الى اميركا سنة ١٩١١ طلبا للتجارة لكنه لم يلبث غير عام واحد عاد بعده الى لبنان ليفتح محلا تجاريا فريدا من نوعه في ذلك الحين ، للكتابة والتصوير واقلام الحبر ، وبقي يديره بنفسه حتى انتهاء الحرب العالمية الكبرى الاولى فأصدر « المجلة الفينيقية » ثم ندوة الصداقات اللبنانية .

وسنة ١٩٣٤ اصدر مجموعته الشعرية « الجبل الملهم » باللغة الفرنسية التي نال عليها جائزة ادغار بــو العالمية ، التي قال فيها ادباء فرنسا وبعدهم ادباء العالم ، « لقد ولد لنا شاعر ، لكأن العالم كان في فراغ حتى ملأه شارل قرم بالجبل الملهم فأعاده الى الاستقرار الذهني » .

تربى على الجمال وعاش عليه ، ومن تكن هذه حياته لا بد له من ان يجعل وطنه مثاله ، فكيف به ، اذا كان هذا الوطن لبنان ؟

ويكون « الجبل الملهم » فاتحة لعصر شعري جمالي ، في نهج ملحمي تنسم منه ارواح البطولة في لبنان مطية بأعراف سمائه وانهاره واوديته وكل ما فيه من الروعة والجمال ، ومهما تضاربت حوله الآراء ، واختفت من حيث المدلول ، فانها ما اجتمعت على رائعة فنية مثل اجتماعها عليه ، فحتى الذين حملوا على مدلوله ، وقفوا مشدوهين امامه فعلقت هذه الروعة على نقدهم .

لبنان شارل قرم ليس رقعة ضائعة ، ولا هو مجرد فكرة غنائية او وشوشة ، اماليد خضر ، بل هو قبل كل شيء موطن الحب والمعرفة فنسمعه يقول :

عمد الجبرؤوت تطلع للفن مثالا
من الجلال الضاحي
انت مرمى آمالنا يا خيالا
فيه كل الحقيقة المسماح
لا تهادت اجل منك رؤى السحر
واسمى مهابة في الفؤاد
تسفحين السنى عليك
جمالا ناجعا بالرواد والانفراد
واذا كان رفرف النوم والهالة
في صخرة من الفن حيه
تشهد الارض ايها الطلل الرمة
انا اعزها مدنية ،

لم يترك شارل قرم شيئا له علاقة بلبنان الا اطلع عليه او جمعه او بحث عنه ، ثم انصرف بعد ذلك الى تأدية رسالته ، التي لا تقوم الا بتعريف لبنان الى العالم ، فنسمعه يقول في المهاجرين :

وانتم ، يا مهاجرينا ، الشجعان
يا من تتابعون ، ذلك السمو
الى المجد الساطع اللمعان
الذي كان يدفع بجدودنا الى الاستمرار
بالرحلات للتنقيب في القارات .
... وانتم يا جميع المهاجرين
من بفضيلتهم
ينازعون ، لاجل مقامنا في العالم
جميع العالم
بدون سند ، ولا هاد ، ولا معين
فانكم تدخرون
الجراة الجبارة في الفؤاد
والخمير الفعال ، شدة البأس ،
من الاجداد
الذين وسعوا بعقولهم حدود الكون

لقـد قسم شارل قرم ، الجبل الملهم ، الى ثلاثة اقسام : نشيد الحماسة ، نشيـد الاحتضار ، ونشيـد الذكريات . لكنه وحدها بالهدف الاسمى وهو العمل على استمرار الدفع اللبناني الذي لم يترك ناحية الا سلك اليها احـلالا للحضارة والعلم والجمال . فنسمعه في قصيدة بعلبـك :

هباء من الشمس مثل الفراشات
يرفلن بالطهر والاحمر
ومثل الاهازيج من مرقص النحل

يملأن سمعك نثرا طري
جليلا بأسراره البكر
ومثل الطيور من الوهم زرق
تطوف ملء نشيد القيان
وبين الغمام وبين الجنان
ويا آية العين تنهد سكرى
على الورد من جسمك الخافق
فتمتنع مقرورة دون شيء
عميق بأسراره دافق
وتغنج ملء بياض الصباح
يخطبها طيبه ونداه
تخال شفاها برتها الشفاه

ما تبالين انت بالناس
يهددنك والحسن منك حسن الرجوله
وامانيك ماتني في هيام
منك بالناس منزل انجيله
في انفلات
تنهدين فيها مجنونة بالضياء
واندفاع مثل الاشعة من اعرافك
السمر في الزمان النائي .

اما وهو على الارز ، فالروعة انك وانت على الترجمة تأخذك المهابة ، فتحس لكأنما السماء كوى فتحت في وجهك فالارض موصولة بها :

ارز لبنان ارز بحراننا
وارز الذهول والخيلاء
قبس منك فوق راحة لو نجيب
ارتمى تدمرا على الصحراء
يا عطوفا بالظل من معطف
اخضر وارز من طيوب زكيه
بغنوج الحرير والدر يحمى
حقنا بالحياة والحريه
خاطب القبة الحنون
ولا تقطع مع الله من حديثك شيا
ضج باللحن فوق اعوارك الجهم
وبالصوت خافق النبض حيا

وبما انه عاش على الجمال واللون والنغم ، ولم تعكر نفسه المرادات بعدما عرف كيف له ان يقهرها ، فانه ، تعاطى الجمال كما الاقتدار ذاته ، فرأى الى الارز :

كيف تبدو ، يا مزيجا من شعاف وضياء
جامحا في اجنح الاملاك في وهم الفضاء
بين ارض وسماء

ولانه رأى ان كل عمل متى اشتهر خسر مغزاه ، ذلك ان صاحبه يكون قد نال ثوابه من وراء هذه الشهرة لذلك غيب معظم اعماله ليبقى على الفرحة الكبرى .

اقول ان انسانية شارل قرم العظيمة هي التي جعلته يشرف من اعالي الجبل الملهم ، فيقف وعلى وجهه ما يتراءى على مياسم الملهمين متى الوعد على متناول ، ويذكر العالم بلبنان الرائد الاول للانسانية والعامل لاحلال الهدوء مكان القلق لانه موطن الحب ، بناء وعطاء : لبنان وطن حر شامخ ، يقول في مقتل ادونيس :

ان ما بكته فينوس وبكته نساؤنا في القدم
وما زال يسيل دمعنا الحار
هو انك كنت مقداما ،
فتناسيت نفسك دفاعا عن ارض الوطن
وشهرت السيف تقاوم الخنزير
ذاك اننا لا نرضى ان يجول في ارضنا
وحش يشرع اظفاره ويشمخ براسه
اجـل ،
لا نرضى ان يتراجع الجمال
وينزوي المثال الاعلى
وتخور الشجاعة
وتتضاءل الاحلام الشعرية
ليتسنى لمسخ مقيت
ان يبسط براثنه القاتمة
على نعيمنا الاخضر
ذاك ما بكته عذارى لبنان .

ان شارل قرم لم ينذر شعره فقط لخدمة لبنان ، بل نذر كذلك نثره وحياته ، فاذا هـو في حكاياته وقصصه وابحاثه ومحاضراته ، رسول دائم يبلور مفهوم اللبنانية ويرافق تطور الجيل .

ارزنا اجمع يستهويه
غفران الذنوب
والتفات للقريب
فهو حب وجهاد .

هكذا عاش شارل قرم ، للحب والجهاد للمثل اللبنانية الماجدة ...

يقول الياس ابو شبكة من مقال في « الجبل الملهم » :
« ولعل الشاعر لم يشأ ان ينقض القلم من ملحمته « الجبل الملهم » قبل ان ينطلق نشيده امام الشمس فأطلقه نشيدا رحبا كالشمس نقيا طاهرا كأشعتها » .

اجل ان « الجبل الملهم » هو الملحمة اللبنانية التي تشيد بمآثر الجبابرة رجال لبنان :

هو الله خص سعاف السماء
بشم النسور وجهم الغيوم وحلم القدر
ومملكة الخالدين البشر

فوزي سابا

ابن النحاس

بقلم لطفية الشهابي

* * *

هو احد شعراء الفترة الاخيرة من عصر الانحطاط . وهو كما تقول المراجع عنه من اعيان القرن الحادي عشر الهجري ومن مشاهير شعراء عصره . والذي نريد ان نعرفه الآن هو بعض الملامح عن حياته وشخصيته من خلال ديوانه .

اسم شاعرنا فتحالله وهو حلبي الاصل وقد عرف بابن النحاس ، وكان جميل المنظر رشيقا في صباه — كما تذكر مقدمة الديوان — اكثر من التنقل في الفترة الاخيرة من حياته فذهب الى دمشق والقاهرة والحرمين ، واستقر اخيرا في المدينة المنورة . ونستطيع ان نجد اشارات كثيرة لهذه التنقلات واثرا للانطباعات التي تركتها في نفسه من خلال بعض اشعاره . ويمكننا ايضا ان نعرف شيئا عن صفاته الخلقية من بين اسطر ديوانه .

فديوانه مطبوع سنة ١٣١٣ هـ في المطبعة الانسية في بيروت ، وقد عني بطباعته السيد محمد علي ابن الشيخ حسن الانسي البيروتي كما هو مبين في الصفحة الاخيرة منه .

يتألف هذا الديوان من (١١٢) صفحة من القطع الصغير ، ويحتوي على اغراض متنوعة من مديح وفخر وغزل وشكوى ورثاء وحكمة وارشاد وتهنئة . . . والشاعر في القصيدة الواحدة يجمع بين عدة اغراض ، ولا يسير على قاعدة مضطردة ، فهو قد يبدا بالغزل وينتقل منه الى المديح ، وقد يجعل المديح اسبق من الغزل او يقصر قصيدته على الفخر والمديح ويراوح بين الموضوعين في ابياته .

اضافة الى ما تذكره كتب التراجم عن رحلة الشاعر الى دمشق ومصر والمدينة المنورة ، فان ديوانه يؤكد لنا هذه الاخبار ويوضحها . فقد رحل شاعرنا الى مصر ولكن يبدو ان الحياة قست عليه هناك فأحس بالغربة وضنك العيش فقال :

يا مصر ما للغريب من نزل — عندك الا الهموم والكرب
دار اغترابي التي عنيت بها — انت وداري ، وحبذا حلب
دار تميت الهموم نغمتها — وتغتذي من عبيرها الكثب
لا قربها للكرام مضيعة — ولا حماها للضيم منقلب
صافح ثراها اذا نزلت بها — فمن ثراها الاعزة النجب

فهو في مصر مهموم مكروب ، وهو متشوق الى حلب حيث تموت همومه ولا يحس بضيم .

وذلك يؤكد لنا ان ابن النحاس لم يكن في حالة مرضية في ارض الكنانة والا لما اعلن تضجره في مصر وشوقه الى حلب . فقد قال الشاعر قديما :

وكل امريء يولي الجميل محبب — وكل مكان ينبت العز طيب

ويعرفنا ديوانه كذلك ان اسرته كانت معه في مصر ، فهو يقول في القصيدة ذاتها :

آه ومن للغريب في بلد — ان سغب مسه وان لغب
اضحك في اسرتي وتشرقني — اذا خلوا عبرتي فانتحب

اما في دمشق فقد لقي خيرا ونعيما :

فمن لدمشق الشام انك لم تزل — على يدك الارزاق فيها تقسم
تقول لي الاصحاب عيد مبارك — عليك وكيف الحال قلت منعم

ولكنه بصورة عامة دائم الحنين والشوق الى الشهباء ولا سيما اثناء اقامته في مصر :

علاقة لي بالشهباء ما ذكرت — الا استفاضت دما من مقلتي الكبد
دار عرفت بها اللذات عن كثب — وانت يا سند العلياء لي سند
ما قلت في مصر لي عيد اسر به — لو لم اجد من صلاح الدين ما اجد

ذلك فيما يتعلق بحنينه ورحلاته ، وقد كانت رحلته الاخيرة الى المدينة المنورة ، وهناك كان الانطباع الاساسي الذي خلفته هذه الرحلة ، وهو الانصراف الى مديح الرسول عليه السلام وبعض الصالحين . وان لم يكن هذا النوع كثيرا في الديوان .

وحين نريد ان نعرف شيئا عن حياته الشخصية فان ذلك بامكاننا ولكن الى حد . فمثلا نستطيع ان ندرك ان شاعرنا كان يدمن التدخين لينفس عن همومه :

وأرى التولع بالدخان وشربه — عونا لكامن لوعة الاحشاء
فاديم ذلك خوف اظهار الجوى — فاشوبه بتنفس الصعداء

ونعرف من خلال شعره كذلك انه كان يكتب نثرا ، وقد وردت بعض الاسطر النثرية له في الديوان :

انا امرؤ صنعتي التغزل والمد — ح وفني الانشاء والخطب

اما حياته العاطفية فاننا نراها متموجة على صفحات ديوانه . ففي حبه الوصال والنعيم والهناء ، وفيه الظمأ والحرمان . وقد نجد لديه الاعاجيب فنراه يجد في الظمأ والحرمان سعادة او شقاء . فمن آثار حبه الهاني الوادع قولـه :

عصف الغصن الرطيب — وتلافانا الحبيب
اضمر الدهر لنا الصلـ — ـح فلم يبق غضوب
زار والعرف له من — نفس الصبح هبوب

ومن شعوره بلذة الحرمان قوله :

ألذ الهوى ما طال فيه التجنب — واحلاه ما فيه الاحبة تعتب
وما بعد دار من حبيب مذمما — اذا لم يجد فيه مناه المؤنب

اغنية حب

الى الشاعر انور الجندي ، في مدينتي العطشى ، وصديق خطواتي على درب الادب ..

يا صديقي
يا ملاذي كلما جن الظلام
أو ثوى بالعمر .. عام
هدني الشوق وأغواني الشراع
واستوى العمر .. تباريح انتظار
يا رفيق الشعر والحرف العتيق
يا نجي ... السوداء في عرس الحنان
يا نداء .. ند في صحراء ذاتي
عادني يوم الهجير
عادني ، نهر حنان
دافقا عبر السنين
ينشر الدفء بقلبي والنهار
كفتار الراقصين .. الحالمين
كالاماني ..
في عيون العاشقين
يا صديقي ..

هذه الايام تمضي
وسحاب الصيف يترى
دون ان افتح
في الارض الشعاب
قبل ان ارسم للشعر كتاب
وبقلبي من سنين الفتح ..
أبعاد عظيمة
ضاع بالوهم طريقي
عند اسواق المدينه
آه .. لو تدرك ما بي
آه .. لو تعلم حالي
لكفاني عبء اوجاع الزمان
يا ملاذي كلما عم الظلام
او مضى في العمر .. عام

دمشق

عبد الكريم دندي

اما الحب الظاميء المتألم ففيه يقول :

ان هـدا الليل فطفـل مقلتي   ببيـت بالنزيف غـير هـادي
ومن بكى من النوى فقد راى   بعينـه تقطـع الاكبـاد
حمر الخدود ان تغب فشكلها   بناظـري داخـل السـواد
لاجـل ذا الدمع جرى بشوقها   ونظـم الياقـوت في بجـادي

ولكنه كثيرا ما يفخر بصموده وعدم انهياره في بحار الحب والهيام :

وما انـا ممن قلبه عنـد غيره   فتبكي عليـه الشامتون وتندب
ويعمى عن الامر الذي فيه رشده   ويجهد في عقبى الامور وينصب
ولكن لـي نفس الوقور وعفة الا   قدير وقلبي في المهمات قلـب

ويقول :

فما كان معسول اللحى يستفزني   ولا كـل مطلوب لـدي محبب

ونستطيع ان نحس في ديوانه معنى العفة ، فليس فيه الغزل الفاحش ولا الهجاء المر ولا الاستجداء في الطلب . ومن تعففه عن الهجاء قوله :

اذا مـا اقتضاني للمذمة فعلهم   نهاني عفـافي والحجا والتادب

من تعففه عن الاستجداء قوله في مدحة قدمها لاحد ممدوحيه :

في منعة عـن ان تماشي ظلها   الاطماع او يقتادهـا التطفـل

اي ان مدحته بعيدة عن التطفل والطمع والرغبة في العطاء .

ولكن صعوبة الحياة كانت تجعله في بعض الاحيان يصور الجدب الذي كان يصادفه الشعراء لقاء ما ينظمون من شعر :

والشعر اخلـف نوؤه   وتقشعت في الجو سحبه
مـا زال تلفحه سمو   م البخل حتى جف عشبه
كم ترتجي صنما سوا   ء فيـه مدحته وثلبـه
مستنكر الاحساب جعـد الكف جعـد الوجه صلبه
أاخي مـن يك شاعرا   فالخالق الـرزاق حسبه
والراس راس المـال ان   يسلم فليس يقل كسبه
وكفى فتى العرفان خلا   نـا فضائلـه وكتبـه

فهو ان عف عن الهجاء في بعض ابياته فانه لم يطق صبرا على السكوت فيما يتصل بحالة الشعراء . فلقد جفت اعشاب الشعر بسبب سموم البخل ، وغدا الممدوحون كالاصنام لا يفرقون بين المديح والهجاء ، فليس للشاعر الا ان يجعل الله حسبه ، وتفكيره مصدرا لكسبه ، ويحتفظ بكتبه وفضائله فهي خير الاصدقاء .

تلك ملامح استطعت ان استشفها من خلال صفحات الديوان عن حياة شاعرنا ابن النحاس وبعض صفاته .

دمشق

لطفية الشهابي

الزجاجة والمئذنة

بقلم السيد عبد العزيز الجندي

لم يتجاوز عمره اربعين عاما — ولكن عينيه الغائرتين ، وعظام وجنتيه البارزتين ، وذلك الشعر الابيض المبعثر في فوضى .. في وسط رأسه ، وعلى الجانبين .. بالاضافة الى ملابسه القديمة الرثة ، المترهلة على جسده الهزيل — توحي لمن يراه انه تجاوز الخمسين .

وقف مترددا امام احدى الحانات الرخيصة ، التي اعتاد التردد عليها ، واختلس نظرة الى من فيها ، ثم دلف الى الداخل متجها الى البار — وقبل ان يجلس نظر اليه الساقي في ضيق وقال له :

— الدفع مقدما يا سيد ..

— وهل يدفع كل الناس مقدما ؟

— ولكن بعضهم يشرب ، ثم لا يجد في جيبه ثمن ما شرب .

— ولكني ...

واحس بيد تربت على كتفه ، ثم تجذبه من ذراعه ... والتفت خلفه ليجد صاحب الحانة .. وكان رجلا قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، حاد النظرات قال وهو يجره نحو الباب جـرا :

— لقد حذرتك من الدخول هنا من قبـل ..

— ولماذا تجذبني هكذا .. ؟

— في المـرة القادمة سأسلمـك للشرطة ..

وكانا قد وصلا الى الباب فدفعه الرجل دفعة قوية ابعدته عدة امتار حتى كاد ينكفىء على وجهه ، بينما تعالت اصوات الناس داخل الحانة بالنكات والضحك — واتجهت اليـه انظار المارة في الطريق .. فمنهم من مصمص شفتيه شفقة به .. ومنهم من هز رأسه رثاء له .. ومنهم من نظر اليه بازدراء .. ثم ما لبثوا ان تفرقوا ، ومضى كل منهم الى سبيله . وقف مترددا ونظر خلفه .. ولكن الرجل كان قد دخل الحانة .. فمشى ببطء في الاتجاه الذي امامه دون قصد او ارادة ..

بعد بضع دقائق من السير بـلا هدف ، وجد نفسه في ميدان العتبة استطاع ان يحدد مكانه ... ولكنه لم يستطع ان يحدد مصيره ..

حاول ان يسترد شتات نفسه دون جدوى .. لا زالت خطواته ثقيلة ، ولكنها منتظمة .. انحرف يسارا على هامش ميدان باب الشعرية ..

التقطت اذنه صوت المذياع يذيع نشرة الاخبار .. ما زال الوقت فسيحا اما ان تكون العاشرة والنصف ، او الحادية عشرة على الاكثر .. ولا يمكن ان تكـون الواحـدة او الواحـدة والنصف .

ارتبكت خطواتـه ، ثـم توقف لحظة .. ولكنه عاود السير .. جذب انتباهه لافتة على يساره تشع نورا قويا (الشرطة في خدمة الشعب) ولطم اذنه صدى صوت يقول (في المرة القادمة سأسلمك للشرطة) .. نظر الى الشارع الفسيح على يمينه ، ثم اجتازه الى الناحية الاخرى .

وتاهت معالمه في شارع ضيق ..



واخيرا ذاب في الظلمة ...

ملأت خياشيمه رائحة طين مخمور بمياه عطنة .. اخذ يتشممها بتلذذ . وبعد خطوات دلف الى بيته ، وتعثرت قدماه باحـدى السلالم المكسورة ، فأكمل صعوده في حذر .

جال ببصره في ارجاء الحجرة ، حيث كان الطفلان نائمين في ركن منها يحتضن كل منهما الآخر ، على حشية بالية ، مل حشوها طول الرقاد فنفر وثار .. وفتح كثيرا من الثغرات في ذلك السور القماشي ، وتسلل منها في غير انتظام .

واستقرت نظراته الطائشة علـى شبه منضدة ينزوي تحتها كثير من الكراكيب وفوقهـا بعـض الكتـب والكراسات ، ويطل من داخلها درجان ممتلئان بعلب الكرتون ، فاتجه الى المنضدة يحاول معالجة ما اطل من ادراجها دون جدوى .

واسترعى انتباهه علبة لامعة من الصفيح ، فأفسح لها طريقا بين علب الكرتـون الاخـرى ووضعها فـوق المنضدة ، وفتحها .. واخـذ يقلب باصابعه محتوياتها من مسامير وزراير وبقايا اقلام وامواس صدئة . واسفل هذه المخلفات قطعة مـن القماش معصوبة بخيـط اسود . التقطتها اصابعه وبسطها في يده .. فـاذا بشيء لامع يبهر بصره ، فرفعه مـن مكانه واغمض عينيه وفتحهما عـدة مرات ... اسرع الى لمبـة الغاز المعلقة في مسمار على الجدار الآخر ، ووضعها على المنضدة واخذ يتفرس فيها من جديد ويدقق النظر في ذلك الوشم الصغيـر الـذي يسمونـه (التمغة) .

وعندما تأكد من انه دبوس مـن الذهب لرباط عنق ، جلس على حافة الفراش ونظر امامه ، فاذا بصورة زوجته المعلقة تبتسم .. وخيل اليه انها تقول له (أنسيت الهدايا التي كنت اقدمها لك بين وقت وآخر .. ؟

عندما كنت رجلا ... تعرف واجباتك، وتقدس حقوق بيتك واولادك .. ؟ انسيت بعد ان انحرفت وعرفت الصهباء ، ورفاق السوء ؟ انسيت كل ما بعته من هذه الهدايا بأبخث الاثمان ؟ لقد خبأت عنك هذا الدبوس .. لانه اول هدية مني لك بعد زواجنا .. و ..) .

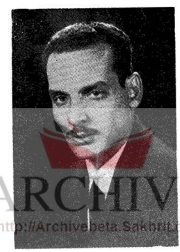
اغرورقت عيناه بالدموع فقام من مكانه ، ووضع الدبوس في درج المنضدة واتجه الى النافذة مسرعا لكي لا يرى اطفاله دموعه ونظر عبر الفضاء الكبير وسقطت من عينيه دمعة ... تلتها دموع . وغامت الرؤيا امامه خلال ذلك الليل البهيم .

ورفع يده يتحسس بها وجهه ، ويمسح بها دموعه ... في الوقت الذي احس فيه بشيء لين يمسح على فخذيه من الخلف ، ونزلت يده الاخرى المسندة على اطار النافذة تتحسس ذلك الشيء .. واحس برعشة .. ثم شعر بشيء من الراحة عندما استقرت يد الطفل الصغيرة واستكانت في يده .

وكأن الطفل قد احس هو الآخر بشيء من الطمأنينة لم يعهدها منذ تركته امه ولم تعد .. فأسند راسه على ابيه ، واستقر جانب وجهه على ظهر يده واخذ يضغط يد ابيه بين يده الصغيرة ووجهه الصغير .

وبحركة لا ارادية ، استدار الاب ورفع ابنه بيديه وضمه الى صدره وبيد رقيقة حانية جعل يمسح على ظهره في نعومة... واغرقته الخواطر متضاربة متصارعة كأنها موجات جارفة تتقاذفه وتتلاعب به ..

ظل على هذا الحال فترة من الزمن لم يدر اذا كانت دقائق قصيرة ... ام ساعات طويلة ولكن .. عندما احس بالراس الصغيرة تتزحلق من على كتفه الى صدره في تراخ عاد الى نفسه .. او عادت اليه نفسه .. فاستدار الى داخل الحجرة حيث انام الطفل بجوار اخته برفق ، وجذب عليهما غطاء ادركه البلى . ثم وقف في وسط الحجرة حائرا . ولم تطل وقفته ولكنه اتجه نحو المنضدة ، وكان الدرج ما زال مفتوحا ، فمد يده وامسك الدبوس واخذ يتحسسه بأصابعه ثم رفعه امام عينيه واخذ ينظر اليه دون ان تتوقف اصابعه عن ملمسه .. ثم تحولت عيناه الى الجدار فرأى الصورة امامه .. رآها تبتسم على غير عادة فابتسم لها ،



السيد عبد العزيز الجندي

*

واخذ يتمتم بكلمات غير مسموعة . وسمع صوتا من ورائه فنظر خلفه حيث كانت ابنته الكبرى جالسة على حافة الفراش تفرك عينيها بيديها .. فذهب اليها وجلس بجانبها واخذ يربت على ظهرها دون ان ينبس ببنت شفة وعندما افاقت من نومها وتنبهت قالت :

— اتريد ان تأكل ؟

وفاجأه سؤالها ، واخذ يفكر للحظات قبل ان يجيب — تذكر انه لم يأكل .. واجابت معدته على السؤال بحشرجات وتقلصات — ووضع يده في جيبه واخرجها ، بعد ان افرغ بها كل ما يملك — وبسطها امامه فوجد بها سبعة قروش — ونظر الى ابنته ولكنها قالت قبل ان يجيب على سؤالها ...

— سأحضر لك عشاءا طيبا ..

وقامت من فورها واتجهت نحو المنضدة ، وازاحت قطعة من القماش البالي ورفعت من تحتها طبقا من الصاج وضعته امامه على طبلية صغيرة وكان به بعض من الخضار تتوسطه قطعة لحم صغيرة .. ثم وضعت امامه رغيفا جافا وقالت وهي تربت على ظهره باحدى يديها الهزيلتين :

— كل ..

ونظر الى الاكل الذي امامه ، ثم نظر اليها وهز راسه في تساؤل فقالت :

— ارسلت لنا الست قدرية هذا الطبق ، وكانت به قطعتان من اللحم اكل اخي واحدة منها ..

قال لها :

— وانت .. ؟

ولم ترد .. ولكنها قامت واحضرت كوبا من الماء وضعته امامه فعاود عليها السؤال ...

— وانت ماذا اكلت .. ؟

— اكلت ما تبقى من فول الصباح ..

وصفعه الرد صفعة قوية ، جعلته يتلوى من الالم ويعاني شدة ينتهي عندها الوصف ، وحانت منه التفاتة الى الصورة المعلقة مرة اخرى فوجدها تبكي في صمت .. وكأن دموعها استحالت الى سائل ناري اخترق شرايينه واخذ يتدفق فيها .. وتحركت يده تبحث عن ابنته بجواره دون ان يلتفت اليها ... وادناها

منه ، واخذ يضغط عليها برفق الى ان التصق جسدها بجسده .. ولم يلبث ان شعر برزاز بارد يهطل على جسمه ليطفىء الجحيم المستعر في داخله ويخفف الحزن الدامي الذي تغلغل في فؤاده الكسير .. وشد انتباههما تململ الطفل الصغير في ركن الحجرة .. ثم اتاهما صوته الهزيل يعلن عن عطشه ويطلب ماء .. وكان هذا الطلب .. الماء .. هو المطلب الوحيد الذي يتجرأ الطفلان على طلبه بعد موت امهما بسبب قسوة ابيهما وزجره لهما .. فقد اعتادا على الصمت .. اذا اعطاهما شيئا اخذاه .. واذا ارادا شيئا لم يطلباه .. وكثيرا ما تعرضت الابنة الكبرى للايذاء والسخرية من (الابلة) ومن زميلاتها التلميذات بالمدرسة الابتدائية لعدم شراء لوازم الدراسة من كراسات واقلام وخلافه .. بيد انها كانت من المجتهدات الذكيات .. ذلك الذكاء الذي يبدو على وجهها ممزوجا بمسحة من حزن متجسما في الرضوخ والاستكانة مرئيا في شحوب وجهها .. وهزال بنيانها ، وقد احاط بذلك الهيكل اطار من ... ثياب رثة ، تعلن عما بداخلها من بؤس وحرمان .

قامت الابنة واحضرت لاخيها كوب ماء .. شربه .. ثم قام متثاقلا تتعثر قدماه من خدر النوم .. وعندما التقط بصره (الطبلية) وفوقها طبق الخضار فرك عينيه ونظر اليها مليا ، ثم انتقل بصره الى ابيه واخته فرأى ابتسامة شاحبة على وجه ابيه ، فتوجه اليهما على مهل .. واخذه ابوه من يده واجلسه بجواره ، وربت على كتفه ، ثم اخذ يمسح ظهره بيده .. وعندما رآه ينظر الى الطبلية وما فوقها في صمت قال لابنه :

— هل تعشيت ؟

ونظر اليه الطفل وتعثرت الكلمات في فمه ، فقد ظن ان اباه سيحاسبه حسابا عسيرا على ما اكله في الغذاء من تلك الوجبة الشهية .. فتحول بصره الى شقيقته وفي عينيه سؤال حائر ، وعتاب خفي .. فقد ظن انها وشت به ألابيه ، واخبرته كاذبة بأنه اي الطفل قد تجرا على اكل ما اكله دون علمها فسألها في تحد :

— الم تأتيني بهذا الطبق وتعطيني قطعة اللحم .. وأنا لم اطلب منك ذلك ..

ثم اتجه الى ابيه قائلا :

— والله العظيم يا ابي .. هي التي قالت لي .. كل .. وهي التي اعطتني بيدها قطعة لحم صغيرة هكذا ..

ورفع يمناه ، ضاما اصابعه الا عن فرجة متناهية الصغر .. فاتسعت الابتسامة الحزينة على شفتي الرجل ، ورفع الطفل بيديه ، واجلسه على فخذه الايسر ثم التفت الى يمينه ورفع ابنته ، واجلسها على فخذه الايمن .. واحاطهما بذراعيه وضمهما اليه برفق .. ومال برأسه ناحية اليسار واخذ يمسح بوجهه وجه ابنه ثم رفع راسه ومال بها ناحية اليمين واخذ يمسح وجه ابنته وبعد فترة لم يدر حساب زمنها استطاع فيها ان يحبس دموعه المكبوتة ويجفف ما ثار منها وافلت وغشى عينيه .

استدار الى اليسار ورفع يده المحيطة بالطفل ضاما اصابعه الا من فرجة صغيرة كما فعل ابنه .. وقال له وعلى شفتيه ابتسامة نادمة ، توحي بالعفو والطمأنينة :

— الم تأكل حقا الا قطعة لحم صغيرة .. هكذا .. ؟

وسرت الطمأنينة في اوصال الطفل .. وابتسم هو الآخر وقال في مرح :

— آه ... والله ...

وارتاح الرجل عندما استطاع ان يبدد الخوف الذي استولى على كيان ابنه .. وجذب (الطبلية) وقربها من اولاده قائلا :

— كلا ..

ورفع الطفل يديه واخذ يأكل بينما قالت اخته لابيها :

— وأنت .. الن تأكل ..

فربت على ظهرها وقال :

— كلي انت يا حبيبتي ..

وترددت .. ولكنه قربها بيده من (الطبلية) فأخذت تأكل ..

ووضع الدبوس صيده الثمين في جيبه ، ونزل الى الشارع مسرعا .. وفي دقائق معدودة وصل الى ميدان العتبة ..

وعندما صادف اول محل صائغ وجده مقفلا ، اسقط في يده .. واحس بأن كل آماله تحطمت على باب المحل الموصد في وجهه . وواصل سيره .. وبينما كان غارقا في افكاره لمح احد الصاغة واقفا امام متجره .. فاتجه نحوه مسرعا .. وعندما وصل اليه كانت الانوار قد اطفئت ، ووقف الصائغ وفي يده قفل كبير .

وعندما عرض القادم عليه الدبوس قال له بعدم مبالاة :

— آسف تعال غدا ..

ولكن الرجل اخبره بصوت مبحوح، فيه ذلة .. انه في حاجة ماسة لثمنه — فنظر اليه الصائغ ، ثم دخل متجره واضاءه .. واعاد النظر الى الرجل متفحصا في منظره ، واخذ الدبوس ونظر اليه ثم سأل حامله :

— من اين اتيت به .. ؟

فأجاب الرجل متعجبا :

— من اين .. ؟ ! انه لي .. احتفظت به من عدة سنوات ، خذ اسمي ورقم بطاقتي ان شئت .

نظر الصائغ في ساعته ، ثم نظر الى الدبوس .. وتردد .. واخيرا اخرج حافظة نقوده من جيبه ، والتقطت اصابعه جنيها قدمه للرجل .

تردد... وحاول ان يقول شيئا.. تحركت شفتاه ، ولكن الكلمات لم تكتمل ، ولم تسمع .

واذا بكلمات الصائغ.. التاجر.. المجرب، تخرج من بين شفتي صاحبها كاملة.. واضحة.. مدوية..

— لن ادفع اكثر من ذلك.. خذ دبوسك اذا اردت .

اخذ الجنيه ، واحكمت اصابعه حصاره.. واتخذ طريقه الى البيت.. وبعد خطوات تثاءبت اللعينة في رأسه وتمطت.. ثم فتحت عينيها وبحلقت ، وتطايرت شرورها في اشعاعات مجنونة ، صبت جام غضبها في كيانه ، ولفح لهيبها عقله واتزانه.. وسرى خدرها في اوصاله .

وسرعان ما ضعف الحصار وتهاوى.. وانهال الصرح وداعى.. فتحركت اصابعه واخذت تفرك الجنيه المحصور في حركات مذعورة...

وفجأة.. توقفت قدماه ، ولوى رقبته ، ونظر خلفه ، واخترقت نظراته كل الحواجز.. حيث استقرت داخل البار.. هناك.. حيث اخرجه صاحبه مذموما مدحورا.. وتراءى على شفته شبح ابتسامة . والتمعت عيناه ، وسرت في جسده بادرة من حيوية وانتعاش.. ثم قطب جبينه فجأة واختفت الابتسامة الواهنة وحل محلها عبوس صارم ، ممزوج برغبة عارمة في الانتقام من ذلك الدب اللعين صاحب البار .

وحانت منه التفاتة نحو حانوت تتلألأ انواره ، ووقع بصره على ثلاجة مرطبات امام الحانوت ، وعلى منضدة بجوارها رصت بعض زجاجات من البيرة.. فتباطأت خطواته ، وتطايرت كل ما ازدحم برأسه من تخيلات.. واخذ يفكر من جديد..

« كيف يتسنى له الانتقام من صاحب البار.. ؟ وهل يكفي جنيه واحد يتيم لا رفيق له لمثل هذا الانتقام.. ؟ ان الساقي لن يعطيه شيئا من رواء ، وربما طرده الدب مرة ثانية.. وحتى لو اتيح له ان يجلس ويطلب ما يريد بعد ان يلوح بالجنيه في وجه الساقي وسيده.. فهل يكفي هذا الجنيه لاكثر من عدة كؤوس معدودة تكاد لا تروي ظمأه.. ؟ » .

وفجأة... خمدت النار المستعرة في داخله ، وصفت نفسه ، وهدأ فكره وتذكر طفليه ، ولاحقته الصورة المعلقة على الجدار ، وخيل اليه انه يسمع صوتها واضحا جليا وهي تقول له « هل اخذت الدبوس لتبيعه ، وتنفق ثمنه على الخمر.. واولادك يتضوعون جوعا.. ؟ » .

واحس بانتفاضة قوية تهز كيانه ، وهم بالعودة الى بيته واولاده.. ولكنه سمع في داخله هاتفا يقول له في تحد :

— « تستطيع ان تبتاع زجاجة او اثنتين من البيرة ، ولن يتعدى ثمنها خمسين قرشا.. كما تستطيع ان تبتاع لاولادك عشاء طيبا وبعض الفاكهة » .

ولم يتردد.. ووجد نفسه يتجه الى الحانوت بخطوات سريعة وابتاع زجاجتين كما ابتاع قطعة من الجبن ، وقطعة من الحلوى ، وخمسة ارغفة وعلبة تبغ.. ورجع الى بيته محملا في خطوات لاهثة .

كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا عندما وصل الى بيته.. تسلل الى حجرته ووضع ما يحمله من طعام وشراب ، وخلع ملابسه على عجل وارتدى منامته ، واشعل لفافة تبغ ، وامسك باحدى الزجاجتين واخذ يمسح عليها في نشوة.. ونظر الى ولديه ، وهما يغطان في نوم هادىء.. تخرج انفاسهما في اصوات رتيبة رخيمة.. وعندما هم بايقاظهما تردد، ثم تراجع وسار في خطوات حائرة.. ونظر الى الزجاجتين ، ثم مد يده وامسك بواحدة.. وجال ببصره في انحاء الغرفة يبحث عن شيء ينزع به غطاءها .

ووقع بصره على يد ممدودة اليه ، ممسكة (بفتاحة) الزجاجات . وانتابته رعشة ، وحملق في اليد المدودة اليه.. ثم زاغ عنها بصره وازور.. ولكن الصورة المعلقة امامه كانت تناديه باصرار وعناد . وعندما نظر اليها مرة اخرى.. رأى احدى يديها ما زالت ممدودة اليه (بالفتاحة).. بينما اليد الاخرى تشير الى الطفلين النائمين باسطة كفها.. وخيل اليه ان الصورة التي امامه قد استحالت امرأة حية من لحم ودم.. رأى الدموع تتدحرج على خديها ، ثم خيل اليه ان شفتيها تتحركان.. وصفع اذنيه صوت من مكان سحيق يقول له « خذ ما تبحث عنه ، وافعل ما شئت.. ولكني سآخذ ابنائي ولن اتركهم لك بعد اليوم » .

وفي تلك اللحظة تململ احد الطفلين في مرقده ، وفرد ذراعيه يتمطى وفي لحظة لا تكاد تحسب بحساب الزمن قفز الرجل ، وجثى على ركبتيه بجوار ابنائه ، واحاطهما بذراعيه في خوف . ونظر الى الصورة قائلا بصوت مسموع « لا ».. وفي نفس اللحظة.. كانت الزجاجة قد سقطت من يده واستقر حطامها على ارض الحجرة ، وانطلق منها سائل يرغي ويزبد .

استيقظ الطفلان على صوت الزجاجة ، فوجدا اباهما جالسا بينهما ، تحوطهما ذراعاه... بينما كانت عيناه شاخصتين في شرود تجاه ارض الحجرة حيث يرقد حطام الزجاجة المكسورة في بقعة مبللة بدمائها المغبرة الباهتة .

وعندما رأت ابنته الزجاج المتناثر ، قامت واحضرت المكنسة من ركن الحجرة واخذت تكنسه وتجمعه فوق بعضه ، ثم نقلته في وعاء القمامة بردهة البيت ثم جلست بجوار اخيها

بيروت الثكلى

بيروت يا انشودة العلياء … بفم الزمان ومعزف الشعراء
بعبيرك الهامي استحمت غنوتي … وبطلك المفروق الاشذاء
يا مهبط النغم المجنح بالهوى … أغرقتني ببهارج الافياء
واليوم مزقني العذاب فهدهدي … طيفا طوته صواعق الارزاء
والجرح نغار بقلبي انني … أحيا بروح للهوى ظمياء
وبرى فؤادي القيد وانهلت دما … عيني ، وشب الحزن في احشائي
بيروت باتت للفظائع مسرحا … وضحية للنزوة الحمقاء
وغدت لاهوال المجازر مغنما … وفريسة لسياسة خرقاء
وتحولت فيها القصور خرائبا … لم تحو غير جماجم الشهداء
وربوعها الثكلى اذا ابصرتها … لم تلق غير الدمع والاشلاء
ومشاهد الاطلال تشخص بينها … لنواظري كالصورة العجفاء
لما غدت هدفا لابشع هجمة … مصحوبة بجرائم نكراء
ومشاعري الكلمى اذا ترجمتها … شعرا تلظى الشجو في ايحائي
فلذ القلوب تئن تحت حطامها … وتضج من اوضاعها الشوهاء
أولئك الاطفال ماذا قد جنوا … ففدوا ضحايا فعلة شنعاء
وهناك كم من صبية تستامها … خسفا فلول الطغمة الغوغاء
سفرت لنا قمرا طغى لألاؤه … وأزاح كل غمامة سوداء
لم تقترف ذنبا ولكن روحها … قد أزهقت بقذائف هوجاء
واليوم قد حل السلام بأرضها … وتحررت من زمرة رعناء

بغداد … خضر عباس الصالحي

في صمت . واخذا يختلسان النظر من وقت لآخر الى ابيهما في تساؤل يشوبه الخوف .

وفجأة .. دوى في الفضاء صوت مزق سكون الليل ، وحطم اغلالا رانت على صدره .. وفك قيودا ادمت قلبه قبل قدميه .. وانقشعت غشاوة على بصيرته قبل عينيه .

وعندما شعر الرجل بتحطم قيوده، نهض واقفا .. وعندما احس بانقشاع الغشاوة ، فرك عينيه بيديه .

وهاله منظر الطفلين وهما ينظران اليه في دهشة ممزوجة بالخوف .. ابتسم لهما ، وربت على خديهما ، وتذكر ما اشتراه لهما من الطعام فقام مسرعا ووضعه بينهما .. وترددا .. ولكنه قال :

— كلا .. كل هذا لكما ..

— وأنت ..

— لقد اكلت .. كلا انتما ثم ناما .. وسأخرج الآن ثم اعود بعد قليل ..

— الى اين ... ؟

— الى المسجد .. لاصلي الفجر ، الم تسمعا الاذان .. ؟

وعندما هم بالخروج لمح زجاجة البيرة الثانية ، فوقف مترددا ، ثم امسكها بيده واتجه الى النافذة قائلا لنفسه « سأحطمها هي الاخرى » .

وعندما هم بالقائها من النافذة .. احس بيد خفية تدفعه بعيدا عن النافذة وعاوده التردد مرة اخرى .. ولكنه سمع نداء ابنته ، فنظر اليها واذا بها تشير الى النافذة المفتوحة قائلة :

— الدنيا برد ..

وفي حزم .. وبلا تردد ، وضع الزجاجة بجوار الحائط ، واغلق النافذة وكأنه وجد حلا سريعا عندما سمع صوتا في داخله يقول له :

— « وما ذنب هذه الزجاجة .. ؟ دعها للصباح .. ويمكنك ان تردها الى صاحبها وتسترد ثمنها ، او تستبدله بشيء آخر » .

وارتاحت نفسه لذلك الخاطر ... وغادر حجرته متجها الى المسجد واخذ يقول بصوت مسموع : « يا رب » ..

وعندما تجاوز الدرب الضيق .. ووصل الى الشارع الرئيسي تراءت له من بعيد مئذنة شامخة .. واخذت الصورتان تتراقصان امام عينيه .. صورة المئذنة ... وصورة الزجاجة.

القاهرة … السيد عبد العزيز الجندي



حمزة شحاتة : قمة عرفت ولم تكتشف

تأليف عزيز ضياء — ١٠٤ صفحات — منشورات سلسلة «المكتبة الصغيرة» مطابع اليمامة بالرياض ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

في كلمته حول الكاتب والكتاب ، يقول صديقنا الكاتب الكبير الاستاذ عبد العزيز الرفاعي ، صاحب « المكتبة الصغيرة » :

« يعتقد استاذنا الكبير عزيز ضياء ، ان الشاعر العبقري حمزة شحاتة قمة لم تكتشف بعد . وهو في ذلك على حق . وانا اعتقد شيئا آخر ايضا ، هو ان استاذنا عزيز ضياء ذاته قمة لم تكتشف بعد . ان الاستاذ عزيز ضياء نفسه ، رغم صولاته الكثيرة الشاسعة في ساحة الادب السعودي ، يظل بارزا في ميدانين اثنين لا يكاد يتخطاهما ، وهما : الصحافة والاذاعة . لذلك ارجو ان لا اكون مخطئا ان قلت : ان هذا الكتاب يعد اول كتاب يصدره استاذنا الكبير ، وبه يعيننا — معشر القراء — على التعرف لا على حمزة شحاتة القمة فحسب ، بل ايضا على القمة الاخرى ، اعني : عزيز ضياء .

الكتاب اذن يمثل قمتين ، احداهما تتحدث عن الاخرى .. قد لا اغلو اذا قلت : ان الاستاذ عزيز يبلغ حقا الذروة في النثر السائغ السلس القوي الآسر ، تماما كما يبلغها حقا الاستاذ شحاتة في الشعر المتدفق حيوية وحركة ونصاعة وعبقرية .

ان هذا الكتاب محاولة لاكتشاف القمتين معا » .

واعود الـى شخصيتي الكتاب : المؤلـف ، والشاعر موضوع الدراسة ، ملبيا دعوة صديقنا الاستاذ عبد العزيز الرفاعي ، في محاولة منـي لاكتشاف القمتين اللتين تحدث عنهما في كلمته القصيرة لكتابه ، فادرك ، منذ السطور الاولى في المقدمة التي مهد بها المؤلف لكتابه ، انني امام كاتب نائر مجيد ، يتعامل مع الكلمة بكثير من الثقة بالنفس ، ويتخير من العبارات ما ينساب رقة ، وسلاسة ، وأدبا آسرا ساحرا .

ولست احب ان اطلق الاحكام جزافا ، بل استعير من ادب الاستاذ عزيز ضياء نماذج ، لكي اقيم الدليل امام من لم يتسن له الاطلاع على شيء من نثره الفني الراقي ، على صحة ما انا ذاهب اليه ، بل ما انا مكتشف اياه من رقة اسلوب ، وجمال الفاظه وعباراته :

يقول المؤلف ، في ايضاح ما يعنيه بالقمة التي لم تكتشف بعد :

« انها القمة التي اخذت العيون بشموخها ، وكانها ولدت قمة منذ درجت على تراب هذه الارض ، او منذ تفتحت هذه العيون على الادب ، ومنذ تعلقت قلوب الذين عرفوها ، سحر الاشعاع في الحرف ، وتعشقت حنان موسيقاه ، وسرحت مع اطيافه ورؤاه ، وانساحت في ألوانه وظلاله . ورصفائي من الشيوخ هـم اصحاب تلـك العيون التي اخذتها القمة بشموخها .. وهؤلاء الرصفاء رغم ما طال من الزمن معاشرة لها ، وتفاعلا مع ما يشبه تفجر الينبوع الثر من عطائها ، ليس في الشعر ، فنا آسرا أخاذا ، وليس في النثر ، درا ولآلي فحسب ، وانما في الفكر غواصا في الاعماق ، ومحلقا في ابعـد الآفاق ، ومتمردا على المألوف والتقليدي والمتبع ، الى حد ، كثيرا ما وصفه محبوه قبل شانئيه بانه لا يطاق » .

وبعد ان يشير المؤلف الى الهزة التي سرت في نفوس الكتاب والادباء ، عند سماعهم نبأ وفاة حمزة شحاتة ، وما دبجته اقلامهم دون ان يكونوا قد عرفوه او ربما دون ان يكونوا قد قرأوا له شيئا يذكر ، يحاول ان يبرر او بتعبير اصح ، يحاول ان يفسر هذه الظاهرة بقوله :

« ان اقل القليل من هذا الذي نشر له وعنه ، كان له من الاثر في النفوس ، والايغال في المشاعر ، والرسوخ في الاذهان ما لم ولا يتوفر لغير حمزة شحاتة ، الا بالكثير المتوالي من عطاء منشور ، وعلاقة موصولة . وهذا يؤكد مرة اخرى ان حمزة شحاتة في حياتنا الادبية كان وما يزال القمة التي عرفت ، ولكنها لم تكتشف ، فهؤلاء الشداة الناشئون الذين صالوا وجالوا باقلامهم على اختلافها قوة وضعفا وسطحية وعمقا ، لا يختلفون عن اولئك الذين يشهدون احدى قمم الهيملايا ، ويؤخذون بشموخها ، ولكنهم يلتزمون الصمت اذا ما سئلوا عن هذه القمة تكوينا يتعقد ، ومسالك تتوعر او تسهل ، ومداخل تتجهم او تهش ، وانواعا من المعادن النادرة ، والاحجار الثمينة ، تظهر علـى السطح ، فتنالها الايدي ، او تستتر وتتوارى في الاعماق ، فلا يصل اليها الا المختصون في التنقيب عن المعادن ، الى جانب انواع من الدوح ، وصنوف من الحشائش والاعشاب ، لهـا من ألوان الزهر ، وغرائب الشكول ، ما لا يعرف خصائصه ، وفصائل انتمائه ، الا كبار الاخصائيين في النبات من علم الاحياء » .

لعلي ، بعد هذا ، اطلت في الاستشهاد بما كتبه الاستاذ عزيز ضياء في مقدمته ، لكنها اطالة مقصودة ، لا محيد لي عنها ، ان انا رغبت رغبة صادقة في استشفاف ملامح القمة الادبية وسماتها البارزة التي يمثلها قلم الاستاذ عزيز ضياء بالذات . وأحسبني صادق الاستنتاج ، بل صائب النظرة الفنية ان انا قررت ، منذ البداية ، ان البروز الذي اشار اليه الاستاذ عبد العزيز الرفاعي في ميداني الصحافة والاذاعة ، لم يستطع ان يسلب مؤلف الكتاب ديباجته الادبية الناصعة الراقية ، او يوقعه في تلك الاساليب التي لا نجد وصفا يلائمها ، اذ تهيمن على صحف البلاد العربية واذاعاتها ، بكثير من الركاكة ، والضعف ، والانحطاط الفني الظاهـر .

واما القمة الثانية التي يجسدها حمزة شحاتة ، فان مؤلف الكتاب يكفينا مؤونة البحث الطويل عن معالمها ، بل تراه منذ صفحات الكتاب الاولى ياخذ بيدنا ، فيوضح لنا كيف عرف حمزة شحاتة و ابا عرب ، وكيف كان معجبا كل الاعجاب بالمثال الذي بدا له رائعا للاناقة في هندام حمزة وملابسه : « كان له ذلك المظهر السري الذي يذكرك باحساسه المرهف ببواعث الشباب ونوازعه وما يستتبعانه من تعلق بالترف ، وحرص على التانق ، في اطار من صرامة الرجولة ، ودفقة عنفوانها ، واعتزاز بالشخصية واحساس بالوزن الفكري تحلق به مشاعر النبل ، وليس التنبل ، والرفعة ، وليس الترفع ، وصدق العاطفة فيما يفضي به عن ذات نفسه ، وخلوصها ، وليس افتعالها او التظاهر بهما » .

ولا ينسى المؤلف ان يشير الى مطالعاته الاولى ، والى مطالعات رصفائه الذين كانوا يتسابقون الـى كتاب جديد تخرجه مطابع القاهرة ودور نشرها ، وعلى الاخص تلك الكتب التراثية التي كانوا شديدي اللهفة للنهل من مواردها الاصيلة .

بعدئذ ، يشير المؤلف الى المعركة الادبية التي نشبت بين حمزة شحاتة ومحمد حسن عواد (الذي كان مديرا لجريدة صوت الحجاز) ، كما يتوقف عند مسيرته الثقافية ، متحدثا عن مولده بمكة المكرمة ، وتلقيه الدراسة في مدرسة الفلاح بجدة ، ثم ارساله في بعثة علمية الى الهند حيث تسنى لحمزة ان ينظم بعض شعره ، ومنه قصيدة يعارض فيها قصيدة لاحمد شوقي ، يقول فيها :

سلام النيل ، يا غندي	وهذا الزهر من عندي
ولو ساعفني الدهر	لقابلتك في الهند
ولكني ، كما تدري	فقير عاثر الجد ،
اضعت البيت والقر	شين في التهليس والجرد
وبعت العنزة الكبرى	على صاحبنا السندي ،
واما سائر العفش	فقد صادره « وجدي »

والشاعر ، في هذه الابيات الخفيفة ، يشير الى شخصية حقيقية ، شخصية وجدي احد ضباط الشرطة في جدة !!

وينتقل الاستاذ عزيز ضياء الى الكلام على حمزة شحاتة ، كاتبا وخطيبا وفنانا ، وفارسا للحوار ، ومترسلا ، ثم يشير الى محاضرته الشهيرة التي القاها في جمعية الاسعاف في شهر ذي الحجة عام ١٣٥٩ هـ. بعنوان « الرجولة عماد الخلق الفاضل » ، وكان العنوان الاصلي الذي اقترح عليه هو : « الخلق الكامل عنوان الرجولة » ، وبعد ذلك يتحدث عن شعره ، لكنه يقصر ذلك الحديث على قصيدة كان قد نظمها في جدة ، ووافق على تسجيلها واذاعتها ، ومن اقواله فيها :

يا شعاعا يلوح في ظلمة الياس	ويخفي ، ماذا يطيق البصيص
لست الا وهما يراود عيني	ويعييا بكشفه التشخيص
او شراعا أعيته ثائرة الموج	فصدر يطفو ، وعجز يغوص
يا لنا طائرين ريعا عن الوكر	فهاما ، والليل داج عويص
فهما في الظلام داع مهيض ،	لسليم جناحه مقصوص

يا جمال الافكار ضقت بها خطوا	وئيدا ، فكيف كيف النكوص
اي دنيا تلك التي غلبت فيها	على الحق سفلة ولصوص
قال قوم : زماننا دون ازمان	تقضت ، وأعوز التمحيص
انما الناس منذ كانوا : ضعيف	لقوي ، وقانص وقنيص

الى ان يقول :

ايها المرتجي مكونا على الارض	تهيأ ، فقد دعاك الشخوص

ويختم الاستاذ عزيز ضياء كتابه بمقتطفات من محاضرة حمزة شحاتة ، ويثبت قبلها شوارد من حكمه ، ومنها ، على سبيل المثال :

ــ الفاقة تقتل اشرف الدواعي في النفس .

ــ الهوان يصبح سهلا بالممارسة ، ككل شيء آخر .. وما اصدق المتنبي في قوله :

من يهن يسهل الهوان عليه	ما لجرح بميت ايلام

ــ ما نفع الحرية لمن ليست له رغائب .

ــ عندما تتلامح عينان متفاهمتان ، يكون هناك لحن موسيقي مشترك .

ــ لا حد لبواعث الالم عند من يحس ويدرك .

ــ ليس في الدنيا تجارة يكثر فيها التغابن كالزواج .

ــ المعركة الابدية بين الرجل والمراة غير متكافئة ، ينتصر فيها الرجل باستمرار ، ولكنه الضحية دائما .

واما محاضرته التي اشرنا اليها ، قبل قليل ، فمن مقتطفاتها ، قوله :

ــ الركود في تاريخ امة تتطلع الى ما وراء حدودها الجامدة ، شر من الخطأ .

ــ ادمان النظر الى الصورة الجميلة يفقدها شيئا من تاثيرها القوي ، كلما تجدد اليها النظر المشغوف وارتوى منها الحس النهوم ، حتى تفقد مقدرتها على التاثير والاداء .

ــ ان كان الانسان المتحضر اليوم لا يعيش كما كان يعيش سلفه ، فان قلبه لا يزال ذلك القلب ، وقريحته الشعرية ما تزال تلك القريحة ، وما تزال اسباب الحب ومشاكله او ابتعاثاته واوهامه في نفس شاعر اليوم ، هي ذاتها في شاعر الامس .

وبعد ، فهذه قطوف دانية ، اخترتها من الروضة الغناء التي قدمها لنا الاستاذ الكبير عزيز ضياء ، ودلنا عليها صديقنا العزيز الاستاذ عبد العزيز الرفاعي . انها تدعونا دعوتين لا سبيل الى تسفيههما :

اولى الدعوتين : ضرورة المضي في الكشف عن جوانب غير معروفة من ادب حمزة شحاتة .

وثانية الدعوتين : مطالبة الاستاذ عزيز ضياء بالمزيد من التاليف ، واقترح عليه خصوصا الاتجاه نحو الكتابة الذاتية ، نظرا لكونه مهيأ بأسلوبه الآسر السلس للاجادة في هذا النوع من الكتابة .

فعسى ان تستجاب هاتان الدعوتان في وقت قريب ، فان في الاستجابة لهما خدمة كبرى لمسيرتنا الادبية الزاهرة .

فوزي عطوي

* * *

التعريف بالادب التونسي

تاليف رضوان ابراهيم ــ ٢٦٦ صفحة ــ الدار العربية للكتاب بتونس

عن الدار العربية للكتاب صدر اخيرا كتاب هام يحمل عنوان : « التعريف بالادب التونسي » تاليف الكاتب المصري المعروف المرحوم رضوان ابراهيم الذي سبق للتونسيين ان عرفوه من خلال دراساته الثقافية والادبية طيلة ربع قرن في كل من « الصباح » ومجلتي : « الندوة » و « الفكر » التونسيتين .

والاديب رضوان ابراهيم من الكتاب المصريين العصاميين .. شق طريقه بنفسه رغم الاشواك والصعاب والدسائس والمناورات في عهد خلافات الاحزاب وتازم الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في مصر قبيل ثورة ٢٣ يوليو ، التي اطاحت بالنظام الحاكم وقضت على البيروقراطية والفساد فيها .

ومع مرور الايام استطاع رضوان ابراهيم ان يفرض وجوده على الساحة الثقافية العربية وذلك بدماثة خلقه ، وقلبه الطيب ، واستقامته ، وايثاره لغيره ، وغيرته على الحق وعلى الشرفاء والمتعبين .

وواكب رضوان ابراهيم المسيرة تدفعه الرجولة الحق ويحدوه الامل في الانتصار والفوز وفي الزحف العملاق ، لان هذا الكاتب ظل دائما بعيدا عن الاضواء وعن التزلف المقيت ، فقد آمن منذ صغره بشرف الكلمة الحرة ، وبمجد الادب .

واذكر انه قال لي ذات يوم في منزله بالقاهرة بصوت جهوري ينم عن جدية وتعلق بالمثل « لا بد ان يتحمل الادباء مسؤولية توعية الجماهير وان يسعوا في خلق عقلية الصمود والجلد والصبر ، فالعدل الاجتماعي والحرية مطمحان عزيزان، لكن من اولى من الادباء من الارشاد والتوجيه ؟ »

وادركت من قوله هذا ان الرجل يحمل هموم امته وواقعها المقهور ، وهو واع كل الوعي بمسؤوليته تجاه عصره ومشكلات جيله .

هذه الملمة سريعة عن صاحب كتاب « التعريف بالادب التونسي » الصادر اخيرا عن الدار العربية للكتاب ، ونشر هذا الكتاب في هذه الآونة بالذات يعد مفخرة من مفاخر هذه الدار .. فالمفكر رضوان ابراهيم

يستحق ان نمجد نضاله الشريف ، وقلمه الحر ، ومواقفه الشجاعة الصلبة في مواجهة الاراجيف والزيف والتحديات .

صحيح ان كتابه « التعريف بالادب التونسي » قد حصلت فيه بعض الاخطاء التاريخية .. من ذلك ان المؤلف اشار الى ان البشير صفر كان من خريجي الزيتونة ومن اساتذتها الكبار . وذكر ايضا ان عبد العزيز الثعالبي يعد من شعراء تونس وانه من جيل الادباء الذين ظهروا بعد الشابي وانه طالب في كتابه « تونس الشهيدة » باعادة دستور ١٨٦١ ، وان على الدوعاجي رفض شروط الناشرين ، وان « البربر » اقلية مثل اليهود نزحوا الى تونس الخ ... (صفحات ٨٧ — ٩٥) .

نعم ! فمن الغريب ان ترد مثل هذه الاخطاء في كتاب رضوان ابراهيم في حين ان الحقيقة بعيدة كل البعد عن كل هذا ..

وقد وجدنا في ملاحظات وتعليقات الاستاذ ابو القاسم كرو ما فيه الكفاية في الرد على هذه الافتراضات .

فالبشير صفر المؤرخ لم يدرس بالزيتونة ولم يكن من اساتذتها ، والثعالبي لم يكن من الشعراء قط ولا من المتاثرين بالشابي لان ولادته كانت اسبق من الشابي .. الثعالبي ولد عام ١٨٧٤ والشابي في سنة ١٩٠٩ وهو من رجال الصحافة والاصلاح والوطنية وبرو كان منذ حركة علي باش حانبة (١٨٧٩ — ١٩١٨) في عام ١٩٠٤ . ومناداته باعادة دستور ١٨٦١ ليس بصحيح فالصواب هــو ايجاد نظــام ديمقراطي دستوري حر .

اما رفض الدوعاجي لشروط الناشرين فهذا ليس موجودا بالمرة ، لان قطاع النشر لم يدخله المحترفون كما اشار الى ذلك الاستاذ كرو في صفحة ٩٣ من الكتاب .

اما « البربر » كاقلية ، فهذا خطا ايضا ، فهم اغلبية سكان المغرب العربي .

وعلى كل فكتاب « التعريف بالادب التونسي » لرضوان ابراهيم الذي يقع في ٢٦٦ صفحة وقدم له الاستاذ ابو القاسم محمد كرو يعد وثيقة هامة عن ادبنا التونسي منذ ظهور الطباعة (١٨٧٠) الى اليوم .

وقد قسمه مؤلفه الى ثلاثة ابواب رئيسية :

(أ) ما تم ترجمته عن ادبنا في اللغة الروسية : (بعض قصص لمحمود طرشونة ، ومحمد المرزوقي ، والطيب التريكي ، وناجية ثامر ، ومحمد فرج الشاذلي ، ومحمود طرشونة ، ومحمود بولعيد ، ومحمد الصاحبي الحاج ، والعروسي المطوي ، ورشاد الحمزاوي) .

(ب) ما كتبه المؤلف عن مؤلفات الشابي او كتب عنه (اغاني الحياة — رسائل الشابي للحليوي — مذكرات الشابي — محاضرة العروسي المطوي عن الشابي — كفاح الشابي ، والشابي حياته وشعره لكرو) .

(ج) ما كتبه رضوان ابراهيم عن الكتب التونسية التالية واغلبها نشر في « الفكر » و « الصباح » و « الصدى » و « الاديب » واذاع بعضها في حصته الادبية باذاعة الكويت الشقيق ، وهذه الكتب هــي : « حصاد القلم » و « عبد الرزاق كرباكة » : تاليف ابو القاسم محمد كرو و « الحركة الادبية والفكرية في تونس » و « تراجم الاعلام » لمحمد الفاضل ابن عاشور و « في الادب التونسي » لمحمد الحليوي و « اعلام من بنزرت » و « رواد الاصلاح » لرشيد الذوادي .

ان رضوان ابراهيم بوضعه لهذا الكتاب يكون قد ادى جميلا نحو التونسيين ومن حقه علينا ان نكرمه بعد موته فننشر ما ترجمه عن الادب التونسي في اللغة الروسية وهو كتاب هام جدا عهد بنشره الى الدار التونسية للنشر منذ عام ١٩٧١ وطالما حدثني عنه في رسائله او جلساته في القاهرة .

فهل نقف مكتوفي الايدي امام هذه الامنية السهلة خصوصا ورضوان ابراهيم قضى ربع قرن في خدمة ادبنا عن طريق مجلات الشرق العربي واذاعاتــه !

بنزرت — تونس **رشيد الذوادي**

* * *

الفأس الذهبية

قصص وحكايات .. للاطفال

ترجمة عيسى فتوح — ١٢٠ صفحة — منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي — مطبعة وزارة الثقافة بدمشق

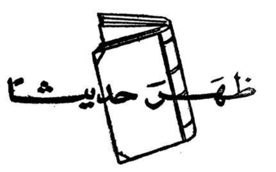
في سلسلة الكتب التي اصدرتها وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٧ الكتاب الذي نحن في صدده وهو يضم قصصا مترجمة للاطفال .. ومن الملحوظ ان وزارة الثقافة بدأت تولي اهتماما زائدا بادب الاطفال الذي نحن بأمس الحاجة اليه بالنسبة لجيلنا الناشىء المتعطش للثقافة والفكر فكما ان هناك ادبا للكبار فكذلك لا بــد من وجود ادب للاطفال وهو يساير احاسيسهم ومفاهيمهم ويعالج قضاياهم .. اذ ان للطفل عالما فسيح الارجاء يجب تغطيته في القصة والشعر والنثر .

ومن المع الذين انبروا لهذا الادب في القطر العربي السوري سليمان العيسى وزكريا تامر وعادل ابو شنب ومصطفى عكرمة وفاضل السباعي ومحمد قرانيا وعيسى فتوح وحسيب كيالي واسكندر لوقا وغيرهم كثير ونستطيع ان نقول ان كل كاتب او شاعر سوري حاول ان يدلي بدلوه في هذا الميدان .. وهذه بادرة طيبة من الاخوة الادباء لان ميدان ادب الاطفال بحاجة الى اقلام هؤلاء الكتاب والى اعمال فكرهم في سبيل هذا الجيل الناشىء المتفتح .

وقد استطاع الاستاذ عيسى فتوح الذي نحن بصدد كتابه « الفأس الذهبية » ان يترجم مجموعة قصائد شعرية للشاعرة البلغارية ليدا ميلفا ومجموعتين قصصيتين وهذا اسهام جيد من اديب واحد في مجال ادب الاطفال ولو حاول كــل اديب في سورية ، ان يسهم بدوره في الكتابة للاطفال لاصبح رصيد هذا الادب يعتز به امام الآداب الاخرى في العالم .

ومن خلال استعراضنا للقصص المترجمة في الكتاب تبين لنا انها تضم (١٦) قصة منتقاة من قصص الشعوب الصينية والرومانية والاستونية واللاتفية والليتوانية والاوكرانية ... الخ . وهــي ذات طابع تربــوي هادف ينمي حس الشعور بالواجب والجد والسعي للاحسن والافضل كما انها الى جانب كل ذلك تنمي خيال الطفل العربي وهي بهذا الشكل تسد ثغرة في مجال ادب الاطفال الذي نحن بأمس الحاجة للعناية به وتشجيعه .

دمشق — الجسر الابيض **حسان بدر الدين الكاتب**



● امطار الربيع الدافئة ـ مجموعة شعرية ـ محمد منذر لطفي ـ لوحة الغلاف لمحي الدين اللباد ـ الخطوط الداخلية لفايز قباني ـ ١٦٤ صفحة ـ منشورات دار الثقافة ـ مطبعة الثبات بدمشق .

● الراعية ـ مجموعة قصص ـ تاليف جميلة العلايلي ـ ٢٣٨ صفحة ـ منشورات مجمع الادب العربي ـ مطبعة عابدين (القاهرة) .

● الموسوعة الموجزة ـ تاليف حسان بدر الدين الكاتب ـ المجلد ٢ الجزء ٧ حرف خ ـ ٨٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع ألف باء ـ الاديب بدمشق .

● حوار الابعاد الثلاثة ـ شعر ـ حسين علي محمد ومحمد سعيد بيومي ومصطفى النجار ـ الرسوم ليوسف غراب ـ ١٨ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● نظرات آسرة ـ شعر ـ وليد حجار ـ ٥٢ صفحة ـ المطبعة الحديثة في حماه سورية .

● الطائران والعلم الابيض ـ شعر ـ مصطفى النجار وعلي الرباوي ـ ٤٨ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) ـ (صدر في حلب) .

● الاحزاب السياسية ـ تاليف موريس ديفرجيه ـ ترجمة علي مقلد وعبد الحسن سعد ـ الطبعة الثانية ـ ٤٢٤ صفحة ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الحركة العربية : المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة (١٩٠٨ ـ ١٩٢٤) ـ تاليف سليمان موسى ـ الطبعة الثانية ـ ٦٨٠ صفحة ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩ ـ تاليف ألبرت حوراني ـ ترجمة كريم عزقول ـ الطبعة الثالثة ـ ٤٨٠ صفحة ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الموسوعة الموجزة ـ تاليف حسان بدر الدين الكاتب ـ المجلد ٢ الجزء ٨ حرف د ـ ١٥٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع ألف باء ـ الاديب بدمشق .

● خليل جرجس خليل .. شاعرا وباقة حب اليه ـ تاليف حسني سيد لبيب وحسين علي محمد ـ الرسوم ليوسف غراب ـ ٤٢ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) ـ (صدر في القاهرة) .

● مدرسة اللقلق ـ قصص وحكايات للاطفال ـ ترجمة عيسى فتوح ـ صممت الغلاف بتول ملاطيه لي ـ ٨٨ صفحة ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ مطبعة وزارة الثقافة بدمشق .

● الفاس الذهبية ـ قصص وحكايات للاطفال ـ ترجمة عيسى فتوح ـ صممت الغلاف بتول ملاطيه لي ـ ١٢٠ صفحة ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ مطبعة وزارة الثقافة بدمشق .

● حمزة شحاتة ، قمة عرفت ولم تكتشف ـ تاليف عزيز ضياء ـ العناوين لمحمد كليب الحارثي ـ ١٠٤ صفحات ـ منشورات المكتبة الصغيرة رقم ٢١ ـ مطابع اليمامة بالرياض .

● الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ ـ تلخيص وتبسيط جعفر الخليلي ـ تقديم طارق عزيز وزير الاعلام ـ تصميم الغلاف والداخل نضال الآغا ـ الخطوط لرضا الخطاط ـ ١٤٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الاعلام العراقية ، سلسلة دراسات رقم ١٢١ ـ دار الحرية للطباعة ببغداد .

● مع ادب الرسائل ـ تاليف ناجي جواد ـ الجزء الاول ـ ٢٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة المعارف ببغداد .

● المقدمة ـ القسم الاول ـ الآثار العربية الكاملة ـ تاليف شارل مالك ـ ٥٠٦ صفحات ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ـ تاليف زين نور الدين ـ الطبعة الثانية ـ ٣٢٨ صفحة ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● دراسات في الفكر العربي ـ تاليف ماجد فخري رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة الاميركية في بيروت ـ طبعة ثانية منقحة وموسعة ـ ٣١٢ صفحة ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الحب الكبير ـ الاعمال الشعرية الكاملة للشاعر ـ صفاء الحيدري ـ ٥٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الاديب البغدادية بغداد .

● الشعراء الشاميون ـ تاليف خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ـ حقق المخطوطة وقد لها : عدنان مردم بك ـ ٣٠٤ صفحات ـ منشورات دار صادر بيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الدكتور احمد سوسه ، مؤلفاته ، آثاره ـ اعداد طارق الخالصي ـ ٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الاديب البغدادية .

● اذكر ، كنت نقطة ، كنت دائرة ـ قصيدة نثرية مطولة ـ هدى النعماني ـ الرسوم لفيات الاخرس ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات دار النهار للنشر ببيروت ـ مؤسسة خليفة للطباعة ، البوشرية بيروت .

● دير ياسين ـ مسرحية شعرية ـ عدنان مردم بك ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات مؤسسة الرسالة ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : شمال المملكة : امارات حايل والجوف وتبوك وعرعر والقريات ـ تاليف حمد الجاسر ـ القسم الاول (أ ـ ح) ـ ٤٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ سلسلة نصوص وابحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب رقم ١٩ ـ منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض ـ المطبعة العربية الحديثة بالقاهرة .